

حين تطلق كلمة (معاني) يراد منها ما تدل عليه الألفاظ والتراكيب من دلالات أولية .
ففي الألفاظ تراد معانيها الوضعية ، أي التي عينها واضع اللغة لها ، وفي التراكيب يراد ثبوت
الحكم للمحكوم عليه ، وما يتعلق بهذا الحكم - إن كان - من متعلقات تعرف عند علماء البلاغة
بمتعلقات الفعل كالمفعول والحال والظرف ...

ولكن علماء البلاغة حين يطلقون هذه الكلمة في أبحاثهم لا يقصدون منها مجرد دلالاتها
الأولية ، بل يقصدون هذه الدلالات مع ما يصاحبها من خواص يلاحظها البلغاء ، ويسمونها [خواص
التراكيب] ، وهي التي اذا وُفِّق اليها القائل ، واستعملها بدقة ووعي وذوق استحق أن يوصف كلامه
بالبلاغة ، ما يُوفِّق اليه منها يكون حظ كلامه من البلاغة .

وهو الخصوصية التي تناسب المقام ، ويتعلق
بها الفرض لاقتضاء المقام لها ، كالتأكيد بالنسبة
للافكار ، وكالإيجاز في الضجر ، وكالاطناب
في المحبوبة ، وغير ذلك من الاعتبارات ،
والخصوصيات ، الزائدة على أصل
المراد^(١) .

وهذه العبارات شرح لقول الخطيب القزويني
في التلخيص : (فالبلاغة راجعة الى اللفظ
باعتبار إفادته المعنى بالتركيب) فهو يطلق
المعاني ، ويريد منها المشتملة على
الخصوصيات لا المعاني الغُفْل .

وقد يريدون من المعاني - أيضا - ما تفيد
المجازات والاستعارات والكنائيات من معاني
ثانوية زائدة على دلالات التراكيب المطابقة مع
رعاية مقتضى الحال .

فعندهم معاني أول ، ومعاني ثوانٍ ، ومن قولهم
في ذلك : (فالبلاغة صفة راجعة الى اللفظ ،
لا باعتبار أنه دل على المعنى الأول الذي هو
مجرد إفادة النسبة بين الطرفين على أي وجه
كانت تلك النسبة ، فان هذا المعنى مطروح في
الطريق يتناوله الأعرابي والأعجمي ، والبدوي
والقروي ، بل باعتبار إفادته المعنى الثاني ،

(١) ابن يعقوب المغربي في (مواهب الفتح) بتصرف يسير . شروح التلخيص ج ١ ص ١٣٤ .



ثم إن هذه الخصوصيات والاعتبارات هي التي سَمَّاهَا الشيخُ عبد القاهر : (معاني النحو) ، وحكم بأن البلاغة ليست إلّا تَوْخِي هذه المعاني ، والمجازات والكتابات بعض هذه الاعتبارات التي قد يقتضيها المقام ، ولكن علماء البلاغة نَوَّهوا بها على حدة ، وأفردوا لها علماً خاصاً لما لها من جليل الإمزايا ، وروائع البلاغات .

ومن هنا قال الدسوقي في حاشيته على (مختصر السعد) بعد أن نقل عن العلماء أن المعاني الثانوية هي الخصوصيات والمزايا التي تقتضيها الأحوال ، قال : (هذا بالنسبة لعلم المعاني ، وأما بالنسبة لعلم البيان فالمعاني الأول هي المدلولات المطابقة - مع رعاية مقتضى الحال ، والمعاني الثانوية هي المعاني المجازية أو الكنائية)^(٢) .

وللشيخ عبد القاهر في هذا الشأن عبارة مشهورة جامعة : (المعنى ، ومعنى المعنى) ، وذلك حيث يقول : (وإذ قد عرفت هذه الجملة فهأنا عبارة مختصرة ، وهي أن تقول : المعنى ، ومعنى المعنى . تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ ، والذي تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يُفْضِي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر ، كالذي فسرتُ لك)^(٣) .

والجملة التي أشار إليها وقال أنه فسرها لك هي تقسيمه الكلام قسمين : قسم يوصل منه إلى الفرض بدلالة اللفظ ، كما تقول : خرج

زيد ، وقسم لا تصل منه إلى الفرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم يكون لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الفرض ، قال : ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل .

وواضح أن عبد القاهر لم يرد من المعنى الأول إلا ثبوت المحكوم به للمحكوم عليه ، دون ملاحظة لمقتضى الحال ، أو عدم مطابقته .

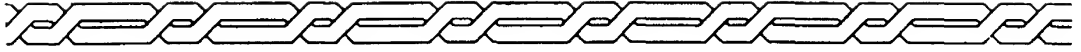
ولكنه - أيضاً - حين يطلق المعنى ، فيقارن مثلاً بين اللفظ والمعنى في البلاغة لا يريد إلا معنى المعنى ، أو المعنى المشتمل على الخصوصيات .

ودليل ذلك - مثلاً - أنه حين قَسَمَ المعاني إلى قسمين : عقلي وتخيلي لم يكن أمامه إلا المعاني الثانوية ، فإن كل الشواهد التي أوردها من بليغ الكلام ، فكأنه حين يتحدث عن بلاغة المعاني يتحدث عن معاني المعاني التي تلاحظ فيها الخواص والاعتبارات ، ولا يتحدث عن المعاني مجردة من كل اعتبار .

وقد أراد بالمعنى العقلي في التقسيم السابق ما كان معنى صريحاً محضاً يشهد له العقل بالصحة ، وتتفق العقلاء على الأخذ به ، والحكم بموجبه في كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل في كل لسان ولغة ، قال : (ولذلك نجد الأكثر من هذا الجنس منتزعا من أحاديث النبي ﷺ ، وكلام الصحابة - رضي الله عنهم -

(١) شروح التلخيص ج ١ ص ١٣٦ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٦٣ .



ومنقولاً من آثار السلف الذين شأنهم الصدق ، وقصدهم الحق ، أو ترى له أصلاً في الأمثال القديمة ، والحكم المأثورة عن القدماء (٤) .

ومن الشواهد التي ذكرها لهذا الضرب قول الله تعالى : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ ﴾ وقول النبي ﷺ : (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) ، وقول المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

وقد علق عليه بقوله : (معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون الأخذ بسنته ، وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه قامت الأحكام الشرعية ، والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتهى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم) (٥) ثم أخذ يعلل ذلك ، ويبين سر ضرورته للحياة ، ولاستقامة الدين والدنيا .

وأراد بالتخييلي (الذي لا يمكن أن يقال أنه صدق ، وأن ما أثبتته ثابت ، وما نفاه منفي) .

ومن هنا دخل عبد القاهر إلى قضية الصدق والكذب في الشعر ، وهي قضية لم يكن عبد القاهر أول من عالجها ، وإنما سبقه إليها كثير من العلماء والأدباء والنقاد ، وقد فسر المراد بالصدق والمراد بالكذب ، وأنه سبقه بعضهم إلى شيء مما قاله ، ولكن ما كان أخرى هذه

القضية الا توسم بهذا العنوان ، فانه اذا صح أن توصف بعض الأشعار ، أو بعض فقرات النثر بالكذب ، فليس كل ما دُرس في هذه القضية موسوماً بصفة الكذب .

فمن هذه الأنواع ما هو إفراط من الشاعر لم يقصد فيه إلى الكذب ، وإنما قصد مجرد المبالغة ، وهي على درجات - كما سنعرف - ، وعبد القاهر نفسه وصف الضرب التخيلي الذي يمكن أن نقول إن المبالغة مرادفة له بأنه (مُفْتَنٌ المذاهب ، كثير المسالك ، لا يكاد يُحصَر إلا تقريباً ، ولا يُحاط به تقسيماً وتبويباً ، ثم إنه يجيء على طبقات ، ويأتي على درجات) .

ويقول بعد قليل من هذه الفقرات : (واعلم أن ما شأنه التخييل في عظم شجرته إذا تَوَمَّل نسبه ، وعُرفت شعوبه وشعبه - على ما أشرت إليه قبيل - لا يكاد تجيء فيه قسمة تستوعبه ، وتفصيل يستغرقه) (٦) .

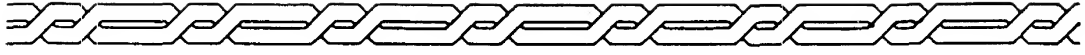
لذا ، فإن وصف كل هذه الشعوب والشعب بأنها من قبيل الكذب فيه مجاوزة ، وتنفير وإجحاف .

قد يكون ما أثبتته الشاعر غير ثابت ، وما نفاه غير منفي ، ولكن بعضه له أصل زيد عليه ، وبولغ فيه ، ولم يقصد قائله إلى الكذب ، وإنما قصد إلى تضخيم أمر أو تهوينه أو إلى الحث على فعل مكرمة ، أو التنفير من اقتراف سيئة ، وقد يكون الشاعر صدر فيما قال عن عاطفة

(٤) أسرار البلاغة ص ٢١٣ . ط . أولى .

(٦) أسرار البلاغة ص ٢٢٤ .

(٥) لفت نظري قول عبد القاهر في بدء هذا التقسيم : (فالذي هو العقلي على أنواع) ثم لم يذكر إلا نوعاً واحداً . فهل نقصت



ثائرة ، او شوق مضطرم فخيّل إليه ما ليس واقعا واقعا ، ولا يمكن أن يقال حينئذٍ أنه كَذَبَ .

وقد وصف القدماء هذه الشعوب والشعب بأوصاف ربما كانت أسلم من وصفها جميعا بهذا النعت القاسي الجائر (الكذب) ، كما عدل النقاد المحدثون عن هذه التسمية فقالوا - مثلا - : الصورة الفنية بين الواقع والخيال ، وكلمة الخيال لا تعني الكذب ، وانما تعني كما قالوا : الخيال يطير على جناحين من الحقيقة .

وقد آثرت أن يكون عنوان هذا البحث : (المعاني بين القصد والإفراط) فلعل هذا العنوان أقرب العناوين إلى حقيقة هذه القضية ، ولعله كذلك أشملها لكل ضروبها .

* * *

وردت في كتابات المتقدمين هذه الألقاب : المبالغة - الإفراط - الإفراط في الصفة - مجاوزة الحد - مجاوزة المقدار - التبليغ - الإغراق - الغلو ، وفي مقابلها : القصد - والاقتصاد - مقارنة الحقيقة - الصدق - المعاني العقلية .

ولعل من الضروري قبل أن نعالج هذه القضية عند من يقفون بجانب القصد ، ومن يقفون في الجانب الآخر ، أقول : لعل من الضروري أن نلقي أضواء على بعض هذه الألقاب ، وبخاصة ما أصبح منها له معنى اصطلاحى في عرف البلاغيين أصحاب القواعد والضوابط .

١ - المبالغة : لقد وردت هذه الكلمة قديما وصفا لمجاوزة الحد في المعاني ، وإن كان ابن حجة الحموي صاحب (خزنة الأدب) يرى أن

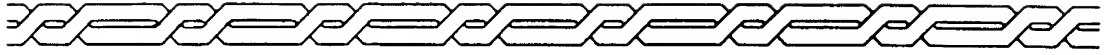
هذه التسمية من وضع قدامة بن جعفر صاحب (نقد الشعر) ، ولعله تبع في ذلك ابن أبي الإصبع ، صاحب (تحرير التحبير) الذي يقول (الإفراط في الصفة ، وهو الذي سمّاه قدامة المبالغة ، وسمّاه من بعده التبليغ ، وأكثر الناس على تسمية قدامة لأنها أخف وأعرف) .

[توفي ابن أبي الإصبع سنة ٦٥٤ هـ ، وتوفي ابن حجة سنة ٨٣٧ هـ] .

وقد وردت كلمة المبالغة وصفا لهذا النوع في كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة ، فبعد أن ذكر شواهد فيها مبالغات ، وقال أن بعض أهل اللغة ينسبها إلى الإفراط ، وتجاوز المقدار قال : (وهذا كله على المبالغة في الوصف) .

ويمكن أن يقال إن ابن قتيبة ذكرها في أثناء كلامه ، ولم يكن يضع ألقابا لأنواع البديع ، بخلاف قدامة الذي عني بتسمية الأنواع التي ذكرها أخذاً بنهج ابن المعتز في كتابه (البديع) فلفتت نظر ابن أبي الإصبع ، ولم يلفته قول ابن قتيبة إن كان اطلع على كتابه هذا .

وفصّل ابن رشيق في كتابه (العمدة) بين المبالغة والغلو فوضع لكل منهما بابا ، كما فعل قدامة وأبو هلال العسكري في (الصناعتين) ، ولكن هذه الكلمة (المبالغة) استقرت في تأليف المتأخرين من علماء البلاغة عنوانا عاما على هذه الألوان ، وأدرجت تحتها ألقاب تجمع كل الأوصاف التي وردت على السنة المتقدمين ، وجُعِلَت المبالغة مبحثا من مباحث علم البديع ، وإن كان بعض ألوانها ذكر في علم البيان ، وبعضها ذكر في علم المعاني .



ذكرت إلا على أحد هذه الدرجات .

٢ - التبليغ : وهو إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة ، الجائز عقلاً ، ومن أمثلته :

أ - قول الله تعالى : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ (٧) .

شبهت أعمال الكافرين تشبيهين :

الأول : بالسراب يتراءى للظمآن ، فيهرع إليه ، وعندما يصله يخيب أمله ، فكذلك أعمال الكافر الحسنة يظن أنه تنفعه يوم القيامة ، ثم لا يجد لها أثراً .

ولم يجيء في التشبيه (الرائي) - مثلاً - مكان الظمآن ، لأن في هذه الأخيرة مبالغة ليست في (الرائي) ، وذلك أن حاجة الظمآن للماء أشد ، وخيبته حين لا يجده أوجع ، وحسرتة عند الوصول إلى السراب آلم .

والتشبيه نفسه أسلوب من أساليب المبالغة .

الثاني : بالظلمات المتراكمة : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة السحاب ، فالمبتلى بها

وإذا كان بعض الباحثين يرى أن المحسنات البديعية ليست أموراً عرضية في الكلام كما جرى عليه الأوائل ، بل هي أمور ذاتية ، فإن أحق الألوان البديعية أن يلحق بعلم البيان هو هذا النوع لما فيه من جمال التعبير ، وروعة المعنى .

ولا يعكر علينا أن تعريف علم البيان - كما درجت عليه البلاغة السكاكية - لا يشملها ، فمن اليسير أن نستأذن سدنة هذه البلاغة أن يسمحوا للمبالغة ، ولغيرها من الألوان البديعية التي تكون أصلاً في بلاغة الكلام ، أن يسمحوا لها بالانتساب إلى علم البيان .

وقد عرفها يحيى بن حمزة العلوي في كتابه (الطراز) ، فقال : (وهي - يعني المبالغة - في مصطلح علماء البيان أن تثبت للشيء وصفاً من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره ، إما على جهة الإمكان ، أو التعذر ، أو الاستحالة) .

وعرفها الخطيب القزويني بأن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدّاً مستحيلاً أو مستبعداً لئلا يُظن أنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف .

والتعريفان متقاربان ، وفيهما ما يشير إلى كل ما تدل عليه الألقاب الأخرى ، فالحد الذي وصل إليه المعنى إما ممكن أو متعذر أو مستحيل ، ولا دلالة لأي لقب من الألقاب التي

الأرض . لُجِّي : عميق ، كثير الماء ، نسبة إلى اللج ، وهو معظم الماء .

(٧) سورة النور : الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .
والسراب : ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس كأنه ماء يجري .
القيعة : بمعنى القاع ، أو جمع قاع ، وهو المنبسط المستوي من



يكون في حيرة شديدة ، والكافر شبيه به ، لأنه فاسد الاعتقاد ، فاسد القول ، فاسد العمل . وهذا ما يجعله في حيرة لا خلاص منها يوم القيامة .

ووسيلة المبالغة التشبيه نفسه ، وتعدد الظلمات ، ثم وصفها بالإطباق ، وشدة السواد : ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ .
ب - قول الشاعر :

خليلي أمسى حب خرقاء قاتلي
ففي القلب مني وقدة وصدوع
ولو جاورتنا العام خرقاء لم نبل
- على جذبنا - ألا يصوب ربيع

والمبالغة واضحة في المعنى جملة ، وقد زادها روعة قوله : (على جذبنا) لأن حاجة المجدبين إلى الربيع (الماء) أشد ، فإذا كان الشاعر لا يبالي فقد الماء ما دامت صاحبه عندهم ، حتى ولو كان الجذب يعضهم بأنبياه ، فلا شك أنه يبالغ ، ولكنها مبالغة قريبة ، إذ لا استبعاد أن يحس الشاعر هذا الإحساس إذا برح به الحب ، وبلغ منه الوجد والضمي .
ج - قول بشار :

الشيب كره وكره أن يفارقني
أعجب بشيء على البغضاء مورود
يمضي الشباب ويأتي بعده خلف
والشيب يذهب مفقودا بمفقود
المبالغة مقبولة هنا ، والعادة جارية بها ، إذ

كل إنسان يكره أن يفارقه الشيب - مع أنه مكروه لديه - لأن مفارقة الشيب مقترنة بمفارقة الحياة ، وكما يقول الشيخ عبد القاهر : (لما كانت العادة جارية بأن في زوال رؤية الإنسان للشيب زواله عن الدنيا ، وخروجه منها ، وكان العيش فيها مُحبباً إلى النفوس صارت محبته لما لا يبقى له حتى يبقى الشيب كأنه محبة للشيب)^(٨) .

٣ - الإغراق : هو إفراط وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة ، ولم يقع في كلام الله تعالى إلا مقرونا بكاد التي تخرجه عن الامتناع .
ومن أمثلته :

أ - قول الله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يُزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾^(٩) .

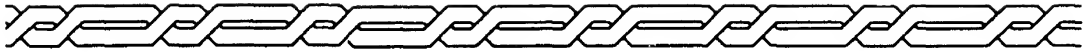
والشاهد في قوله سبحانه ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ ، وهو من الممكن عقلا ، ولكنه غير معتاد ، وقد جاءت المبالغة سائغة باستعمال الفعل يكاد معها .

ب - قول أبي هلال العسكري في رسالة إلى بعض أهل الأدب : (قربك أحب إلي من الحياة في ظل اليسر والسعة ، ومن طول البقاء في كنف الحفّض والدعة ، ومن إقبال الحبيب مع إدبار

بعض . الركام : المتراكب بعضه فوق بعض . الودق : المطر ، وقيل : البرق . خلاله : الشقوق التي تكون بين أجزائه . من السماء : من جهة العلو . البرد : حب الغمام . السنا : الضوء .

(٨) أسرار البلاغة ص ٢١٧ . والبيت منسوب لبشار في دلائل الإعجاز ص ٢٤٢ .

(٩) سورة النور . الآية ٤٣ . يزجي سحابا : يسوق بعض قطعه إثر



الرقيب ، ومن شمول الخصب بعد عموم الجذب (١٠) .

فالعقل لا يمنع أن يكون شعور صاحب بقرب صاحبه بهذه المنزلة ، ولكن من غير المعتاد أن يفضل العاقل مهما بلغت من نفسه الصداقة قرب صاحب على هذه المحبوبات التي ذكرها ، ومنها ما هو من ضرورات الحياة : (الخصب بعد عموم الجذب) إلا إذا كان الصديق الذي يصدق عليه قول القائل : (لا تصح المودة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا) .

وأين هو هذا الصديق ؟ وإبراهيم بن أدهم - رحمه الله - يقول : أنا منذ عشرين سنة في طلب أخٍ إذا غضب لم يقل إلا الحق فما أجده !! . ، وإبراهيم هو من هو زهدا وورعا . .

جـ - ومنه - على رأي - قول المتنبي يصف هزال جسمه :

رُوحٌ تردُّدٌ في مثل الجلال إذا
أطارت الريحُ عنه الثوبُ لم يَب
كفى بجسمي نحولا أنني رجل
لولا مخاطبتي إياك لم ترني

هذا وإن كان بعيدا في العادة لكن العقل لا يمنع أن ينحل الشخص حتى يصير مثل الخلال ، ولا يستدل عليه إلا بالكلام .

بل ذكر البهاء السبكي في (عروس الأفراح) (١١) أن العقل لا يمنع أن يضيء الزيت من غير نار ، إشارة إلى قوله تعالى :

﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار﴾ ، وأن يخرج الفرس عن ظله يشير إلى قول ابن حميد الصقلي في وصف فرس :

ويكاد يخرج سرعة عن ظله
لو كان يرغب في فراق رفيق

وأن تعقد حوافر الخيل غبارا يتكاثف حتى يمكن السير عليه ، يشير إلى بيت المتنبي :
عقدت سناكبها عليها عثيراً
لو تبتغي عنقاً عليه لأمكننا

بذلك وسَّع هذا العالم مدركات العقل حتى لا يكاد يخرج عن دائرته إلا ما استحالت ظاهرة ؟!

وأكثر العلماء على غير هذا الرأي ، ولذلك اتفقوا على التمثيل بقوله تعالى : ﴿يكاد زيتها يضيء .. الآية﴾ للغلو ، وقالوا : لا شك أن إضاءة الزيت إضاءة كإضاءة المصباح بلا نار محال عقلا فلو قيل في غير القرآن : هذا الزيت يضيء كإضاءة المصباح بلا نار لم يقبل .

وقد أورد ابن حجة الحموي في هذا الموضع بيت ابن الفارض في وصف نحول جسمه :

كأنني هلال الشك لولا تأوهي
خفيت ، ولم تُهد العيون لرؤيتي
وفضله على بيت المتنبي ، وقال : وأين لطف (لولا تأوهي) من ثقل : (لولا مخاطبتي) ؟! وقد أكثر الشعراء من المبالغة في وصف النحول ، وأكثر ما قالوه ليس عليه رونق القبول .

(١٠) الخفض والدعة : السعة في العيش ، والراحة .

(١١) شروح التلخيص جـ ٤ . ص ٣٦٢ .

ويشبه قول الخبز أرزي هذا في الاستمالة ،
وفقد الرونق والماء قول أبي عثمان الخالدي :

بنفسي حبيبُ بان صبري بيبنه
وأودعني الأحزانَ ليلة ودعا
وأنحلني بالهمم حتى لو أنني
قذى بين جفني أرمد ما توجعا
وأبعد من كل هذا قول الخالدي أيضاً :

وأنحلني حتى لو أني بكفة
وظللي بأخرى ما رجحت على ظلي

ويبدو أن الشعراء كانوا يتنافسون في مثل هذا
العبت الخارج عن العقل ، وهو على أي حال
أخف من ذاك العبت الخارج عن العقل والذوق
والأخلاق جميعاً .

٤ - الغلو : وهو إفراط وصف الشيء بما
يستحيل عقلاً ، ويلزم من ذلك أن يكون ممتنعاً
عادة .

وكذلك لم يجيء هذا النوع في القرآن
الكريم إلا مقترناً بما لا يظهر معه الامتناع^(١٣)
ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الله نور السموات
والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح
في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من
شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد
زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار﴾^(١٤) .

فمن ذلك قول ابن الفارض - أيضاً - في
قصيدته التي مطلعها :

حادي الأظعان يطوي البيد طي
منعماً عرج على كئيبان طي
يقول فيها :

قل تركت الصب فيكم دنفاً
ماله ممّا براه الشوق في
كهلال الشك لولا أنه
أن عيني عينه لم تنأي^(١٢)

والمعنى في البيت الأول جميل ، والألفاظ
سائغة عذبة ، لولا أن المبالغة تجاوزت كل حد .

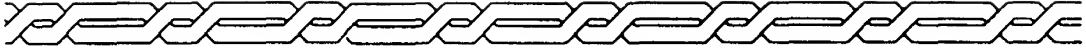
ومن ذلك قول المتنبي :
ولو قلّم ألقيت في شق رأسه
من السقم ما غيرت من خط كاتب
ولعل الشاعر المعروف بالخبز أرزي نظر إلى
قول المتنبي فقال :

ذبت من الشوق فلو رُج بي
في مقلة النائم لم ينتبه
وكان لي فيما مضى خاتم
فالآن لو شئت تمنطقت به

وقد أحسن ابن حجة الحموي في تعليقه
على هذين البيتين حيث قال : إن هذا لا يقبله
عقل ، ولا عليه رونق القبول .

نقل ابن يعقوب المغربي ، وأيد العدول عن هذه العبارة عند
التمثيل بآية من القرآن تأدياً .
(١٤) سورة النور: الآية ٣٥ .

(١٢) في : مخفف في ٤ ، أي ليس له ظل من شدة نحوله . أن في أول
الشرط الثاني فعل ماض من الأنيب . تنأي : تروى .
(١٣) عبارة بعض البلاغيين (ما دخل عليه ما يقربه من الصحة) وقد



فيستحيل عقلا أن يضيء الزيت من غير أن
تمسه النار ، وقد نقلت آنفا رأي ابن السبكي في
ذلك .

وبعض الأبيات السابقة يصلح شاهدا على
هذا النوع ، ومن ذلك قول المتنبي في سيف
الدولة :

تضيق عن جيشه الدنيا ولو رحبت
كصدره لم تبُنْ فيها عساكره
وقول الشاعر :

من البيض الوجوه بني سنان
لو أنك تستضيء بهم أضاءوا
وقد قرَّب هذا الشاعر الغلو باستعمال الحرف
(لو) لكن الشاعر الآخر جاء بالمعنى خاليا من
كل لفظ يقربه للإمكان ، حيث قال :

أضاءت له أحسابهم ووجوههم
دُجى الليل حتى نطَمَ الجزعَ ثاقبه
فمن المحال أن تضيء الأحساب والوجوه ،
وتزيل ظلمة الليل حتى يستطيع من ينظم
خرزات العقد أن ينظمها على هذا الضوء .
ومن الغلو قول محمد بن هانئ الأندلسي
يصف فرسا :

عُرِفَتْ بسرعة سبقها لا أنها
علقت بها يوم الرّهان عيون
وأجل علم البرق فيها أنها
مرّت بجانحتيه وهي ظنون

وبيت البلاغيين المشهور في هذا اللون من
المبالغة هو قول أبي نواس في هرون الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه
لتخافك النطف التي لم تخلق
قالوا : ومعلوم أن خوف النطف محال ؛ لأن
شرط الخوف عقلا الحياة ، فيستحيل الخوف
من الموجود بدونها فضلا عن خوف المعدوم .
لكن للآمدي رأيا آخر في هذا البيت ، فقد
قال : وأخذ على النابغة قوله يصف عنق المرأة
بالطول :

إذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها
ومن يتعلّق حيثُ علّق يفترق
فجعل القرط يخاف ويفرق .

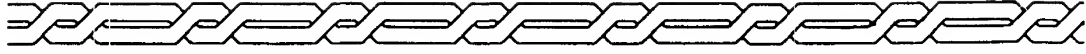
ثم قال الآمدي : وهذا قريب من قول أبي
نواس ، وذكر البيت ، وعلّق عليه بقوله : بل أبو
نواس أعذر ، لأن قوله : (لتخافك) يريد لتكاد
تخافك ، والشعراء تسقط (تكاد) في الشعر
وهي تريدها^(١٥) .

هذه هي المعاني الاصطلاحية لهذه
الألقاب ، ولورجنا إلى معانيها اللغوية لوجدنا
الصّلات قوية وواضحة بين القبيلين .

فالمبالغة هي مصدر قولك : بالغتُ في
الشيء مبالغة إذا بلغت أقصى الغرض منه .
والإفراط : هو مصدر قولك : أفرط في
الأمر إذا جاوز فيه الحد ، ومنه ما جاء في قوله
تعالى : ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا
واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾^(١٦) .

(١٥) الموازنة جـ ١ ص ٤٠ تحقيق صقر .

(١٦) سورة الكهف : الآية ٢٨ . فرطا - بضمين - أي مجاوزا فيه الحد .



صيغ المبالغة وأساليبها

جاءت المبالغة في كلام العرب بصيغ وأساليب كثيرة يصعب استقصاؤها ، ولذلك نكتفي هنا بذكر أكثرها ذيوها ، وربما أثبتنا غير المشهور تملُّحاً .

١ - صيغ المبالغة القياسية المعروفة :
(فَعَّال - مفعال - فعول - فعيل - فَعَّل) ، والتي نظمها ابن مالك في ألفيته :
فَعَّال أو مفعال أو فعول
في كثرة عن فاعل بديل
فتستحق ما له من عمل
وفي فعول قل ذا وفَعَّل
وقد وردت الصيغ الثلاث : (فَعَّال - فعول - فعيل) بكثرة في القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿إِنْ بَطَشَ رَبُّكَ لِشَدِيدٍ إِنَّهُ هُوَ بَدَأُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لَمَّا يَرِيدُ﴾^(١٨)

ففي هذه الآية صفتان من صفات الله تعالى على وزن فعول : غفور ودود ، وثالثة هي فَعَّال لما يريد .

وقال عز وجل : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . ويرى بعض العلماء أن الكثرة التي تفيدها هذه الصفات وغيرها من أمثالها إنما هي بحسب متعلقاتها قال الزمخشري في الكشاف : (المبالغة في التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده) .

ومن المادة - أيضاً - ما جاء في قوله تعالى على لسان موسى وهرون عندما أرسلهما إلى فرعون : ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾^(١٧) أي يجاوز الحد في الاعتداء علينا .

والاغراق من أغرق النازع في القوس إذا استوفى مدَّها ، والنازع هو الرامي بالسَّهم ، وذلك أنه يمسك القوس ، ويشد السَّهم إلى الخلف ، أي إلى صدره ، فكلما بالغ في الشَّد كان مَرْمَى السهم أبعد ، فإذا بلغ الغاية في الشد قيل : أغرق .

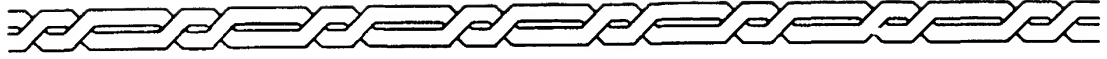
وقد فسر بعض العلماء (النازعات) في قوله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتُ غُرَقًا﴾ بأنفس الغزاة التي تنزع القسيَّ بإغراق السهام .

والتبليغ : من بَلَغَ الفارس إذا مدَّ يده بعنان فرسه ليزيد في جريه .

والغلو : مصدر غلا غلوا ، أي جاوز الحد ، وغلا بالسَّهم رفع يده لأقصى الغاية ، وغلا السَّهم : أي ارتفع في ذهابه ، وجاوز المدى . وهذه المعاني - كما هو واضح - متقاربة ، فكلها تفيد مجاوزة الحد ، وإن كان بعضها أقل دلالة على المجاوزة من بعض . فالتبليغ - مثلاً - أقل من الإفراط ، مع أنهم عند بيان المعنى الاصطلاحي للتبليغ فسروه بالإفراط ، مما يدل على أنهم قد يهملون هذه الفوارق الدقيقة أحياناً .

(١٨) سورة البروج الآيات ١٢ - ١٦ .

(١٧) سورة طه . الآية ٤٥ .



وليعضهم رأي آخر . قال بهاء الدين السبكي : سمعت بعض المشايخ^(١٩) يقول : إن صفات الله تعالى التي هي على صيغة المبالغة كغفار ورحيم وغفور ومنان كلها مجازات ، وهي موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها ؛ لأن المبالغة أن يثبت للشيء أكثر مما له ، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال لا تمكن المبالغة فيها والمبالغة - أيضاً - في صفات تقبل الزيادة والنقص ، وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك . وعرضت هذا الكلام على الوالد فاستحسنه^(٢٠) .

ووقف السيوطي عند قوله تعالى : ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ ، وقال إن في الآية إشكالا ، ذلك أن نفي المبالغة في الفعل لا يستلزم نفي الفعل ، وذكر عن الأشكال تسعة أجوبة ، منها ما ذكره ابن السبكي ، ومنها أن ذلك على النسبة أي بذي ظلم ، وقال ان ابن مالك حكاه عن المحققين^(٢١) ، وباقي الأجوبة ليس هناك .

وقد بدا لي أنه حتى على فرض أن الصيغة تفيد المبالغة حقيقة فإنها لا تثبت أصل الظلم لأن الله سبحانه نفاه عن نفسه في آيات كثيرة : ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ . ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ . ﴿وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ .

ومما ورد في القرآن من صيغ المبالغة وصفاً

لغير الله تعالى : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ . ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ . ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾^(٢٢) .

فهذه صيغ ثلاث : رحيم - فخور - جبار . ولها نظائر في آيات أخر .

أما الصيغتان الأخريان : فَعِل ومفعال فقد وردتا في كلام العرب كثيرا ، ولم تحضرني واحدة منهما في القرآن الكريم إلا كلمة : (حذر) في قوله تعالى : ﴿وإنّا لجميع حذرون﴾^(٢٣) في قراءة ، على أنه تقدر حذر بديلا عن «حاذر» التي جاءت في القراءة الأخرى . وأنشد سيبويه :

حذر أمورا لا تُخاف وآمن
ما ليس منجيه من الأقدار
وقال عن تعدية (حذر) لمفعول : أنه نادر ؛ لأن الوصف إذا جاء على فَعِل لا يتعدى إلى مفعول .

وأما مفعال فجاء بعضه مقيسا وبعضه مسموعا . ومن ذلك قول العرب في المدح بالكرم : (أنه لَمُنْحَار بوائكها) . [البوائك : جمع بائكة وهي الناقة السمينة الفتية الحسنة] . وقال هذبة بن الخشرم :

(٢٢) على الترتيب : التوبة : الآية ١٢٨ . النساء : الآية ٣٦ .
ابراهيم : الآية ١٥ .
(٢٣) سورة الشعراء : الآية ٥٦ .

(١٩) ذكر السيوطي انه (البرهان الرشيدى) معترك الأقرا ص ٤١٣ .
(٢٠) شروح التلخيص ج ٤ ص ٣٦٨ .
(٢١) معترك الأقرا ص ٤٣٠ .



ولست بمفراح اذا الدهرُ سرّني
ولا جازع من صَرْفه المتقلّب
ولا أتمنى الشرَّ والشرُّ تاركِي
ولكنّ متى أُحْمِلُ على الشر أركب
وقال طرفة بن العبد :

وأني لأمضي لهم عند احتضاره
بعوجاء مرقالٍ تروح وتغتدي

ومن كلمات النحويين المشهورة : زيادة
المبنى تدل على زيادة المعنى . ومثلوا لذلك
بصينغ كثيرة منها صيغة (فَعَل) بتشديد العين ،
وشاهدها قول الله تعالى في قصة يوسف عليه
السلام : ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾
والضمير لامرأة العزيز ، أي أنها أغلقت أبوابا
كثيرة .

ومن ذلك ما روي أن فاطمة الزهراء - رضي
الله عنها - قالت : (ما هو إلا أن سمعت قائلا
يقول : مات رسول الله ﷺ فَأَذْلَوْتُ حَتَّى
رَأَيْتُ وَجْهَهُ) .

قال ابن الأثير : أي أسرع . يقال :
اذلولى الرجل اذا اسرع مخافة أن يفوته
شيء ، وهو ثلاثي كُررت عينه ، وزيدَ واواً
للمبالغة كاقْلُولِي واغْدودن (٢٤) .

وفي كلام العرب صينغ سماعية كثيرة تفيد
المبالغة :

يقولون : فلانٌ مِعْنٌ مِفْنٌ . كلاهما على
وزن مِفْعَل - بكسر الميم وتشديد النون - ،
والمِعْنُ الذي يعرض في كل شيء ،
والخَطِيبُ ، والمِفْنُ الذي يأتي بالعجائب ،
ويقال للمرأة : مِفْنَةٌ .

وقد جاء في العقد الفريد هذه الطرفة :
(ومن صفة المرأة سوء . يقال : امرأة سِمْعَنَةٌ
نِظْرَنَةٌ ، وهي التي اذا تسمعت شيئا أو تبصرت
فلم تر شيئا تظنته تظنيا ، قال أعرابي :

أَنْ لَنَا لَكُنَّةٌ سِمْعَنَةٌ نِظْرَنَةٌ
مِعْنَةٌ مِفْنَةٌ كالريح حول القُنه
ألا ترهُ تَظْنَهُ (٢٥)

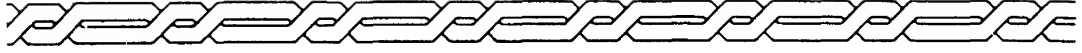
ومن المسموع من صينغ المبالغة كلمة
(كِذَاب) ، وقد وردت في قوله تعالى - في
سورة النبأ - في وصف أهل النار : ﴿وَكَذَبُوا
بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ .

قرئء بالتخفيف ككتاب ، وبالتشديد
ككتّان ، واللفظ يفيد المبالغة ، فإن كان مصدرا
فاختياره على المخفف لقصد المبالغة ، وإن
كان صفة للواحد فهو للمبالغة أيضا . تقول :
رجل كذاب - بكسر الكاف - أي كثير الكذب ،

واقْلُولِي في الجبل : صعد أعلاه ، فأشرف ، واقْلُولِي الطائر : وقع
على اعلى الشجرة وكل ما علوت ظهره فقد اقلوليته ، قال صاحب
اللسان : وهذا نادر لأننا لا نعرف (افعول) متعدية إلا
اعرورى واحلولى .

(٢٥) ج ٧ . ص ١٤٧ . ط . العريان .
والكنة - بالفتح - امرأة الابن ، أو الأخ ، والجمع : كنانن .

(٢٤) النهاية في غريب الحديث ج ٢ ص ١٦٧ .
واغْدودن النبات : اخضر حتى يضرب الى السواد من شدة ريّه ،
والمغْدودنة : الأرض الكثيرة الكلال الملتفة ، وشَعْرٌ مغْدودن
وغْدودن : كثير ، ملتف ، طويل ، قال حسان بن ثابت :
وقامت ترائيك مغْدودنا
إذا ما تنوء به آدها
وقال أبو زيد : شعر مغْدودن : تنديد السواد ، ناعم .



ويكون حينئذٍ ، في هذه الآية - وصفا لمصدر محذوف ، أي : وكذبوا تكذيبا كذابا ، مفرطا كذبه .

ومن صيغ المبالغة في هذه المادة نفسها : (تَكْذِبُ) - بكسر التاء ، وتشديد الذال - ، وكُذِّبَ - بضم الكاف والذال ، وتشديد الباء - (تَكْذِبَانِ) - بفتح التاء ، وضم الذال - .

ومن الصيغ المسموعة أيضاً في المبالغة : شعر فينان ، أي غزير له أفنان ، وامرأة فينانة أي كثيرة الشعر ، وشجرة فنواء : كثيرة الغصون .

٢ - الصور البيانية من تشبيه ومجاز وكناية ؛ لأنه لا يعدل عن الكلام المجرد إلى التشبيه ، ولا عن الحقيقة إلى المجاز ، ولا عن التصريح إلى الكناية إلا لأغراض لا تؤديها هذه الأصول ، ومن هذه الأغراض المبالغة .

وقد وردت هذه الصور جميعا في القرآن الكريم ، وفي الأحاديث النبوية الشريفة وعلى ألسنة الشعراء والكتاب مما يدل على أن المبالغة أصيلة في الكلام العربي .

وأمثلتها تفوق الحصر ، وإذا كان من المستحسن أن نذكر أمثلة فلإني أذكر قليلا أرى المبالغة فيه واضحة وجميلة ، وليست نتيجة تنقيب وتفتيش ، ولكن قدّمها مرورها على خاطر عندما وصلت إلى هذا الموضع من البحث . فمن ذلك قول الشاعر علي بن جبلة في شيب نزل برأسه مبكرا ومفاجئا - كما يرى -

ألقى عصاه وأرخى من عمامته
وقال ضيفٌ . فقلتُ : الشيبُ؟ قال : أجل
فقلتُ : أخطأت دار الحي قال : لقد

تمت لك الأربعون الوفراً ، ثم نزل
فما شجيتُ بشيء ما شجيتُ به
كأنما اعتمَ منه مفرقي بجبلٍ

وقد راغني هذا الحوار اللطيف بينه وبين الشيب الذي جاء في صورة قادم من سفر ، طال به السفر ، وما كان مقصده إلا دار الشاعر يلقي فيها عصا التسيار ، وهذا التجسيم بإلقاء العصا ، وإرخاء العمامة والسؤال والجواب ، ثم هذه المفاجأة التي قطعت الحوار ، ولم تكثرث بالشاعر ، ولا بمحاولة ردّه للضيف الذي أخطأ - في زعمه - دار الحي ، هذه المفاجأة التي عبّر عنها بقوله : (ثم نزل) هكذا ضاربا بكلام الشاعر ، واعتراضه عُرض الحائط ، وأخيرا هذا التشبيه الرائع البليغ القاسي (اعتم منه مفرقي بجبل) . والذي جعل الأمدي يقدم لهذا الشعر بقوله : (ومما لا شيء أجود منه في معناه قول الآخر) (٢٦) .

ومن ذلك قول شوقي :
أخا الدنيا أرى دنياك أفعى
تبذل كل آونة أهابا
لها ضحك القيّان إلى غبي
ولي ضحك اللبيب إذا تغابى
جنيتُ بروضها وردا وشوكاً
وذقتُ بكأسها عسلا وصابا

(٢٦) الموازنة ج ٢ ص ٢٢٠ تحقيق سيد صفر .



فلم أر مثل فعل الخير كسبا
ولا كتجارة السوء اكتسابا
ومن الكنايات الرائعة البليغة قول أبي نواس
يمدح الخصيب :

فما جازه جودٌ ولا حلّ دونه
ولكن يسير الجود حيث يسير
فهذا غاية ما يقال في وصف انسان بالجود ،
ولعل أبا الشيص أخذ من أبي نواس بيته :
وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي
متأخر عنه ولا مُتقدّم

وهو بيت رائع جاء مطلع قصيدة رائعة للشاعر
(محمد بن عبد الله بن رُزَيْن الملقب بأبي
الشيص ، وهو ابن عم دعلج بن علي الخزاعي -
توفي مقتولا سنة ١٩٦ هـ) وكان إذا سئل : ابن
من أنت ؟ يقول : ابن وقف الهوى بي (٢٧) .
وربما كان أبو نواس هو الذي أخذ منه ؛ لأنهما
عاشا في زمن واحد .

وعلى ذكر الكنايات الجميلة ألح على
الخاطر الآن قول شوقي يعجب لمتنع
المستعمرين بخيرات البلاد وحرمان أهلها
منها :

أحرامٌ على بلابله الدو
حُ حلالٌ للطير من كل جنس !!؟

٣ - ترادف الصفات ، وقد تقدم شاهد لهذا
الأسلوب في قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات في
بحر لجي .. ﴾ .

ومنه قوله تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ وقالوا
قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن
بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ .

فهذه حُجُبُ ثلاثة متوالية كل واحد منها
كافٍ في المراد منه (فلم تدع هذه الآية
حجابا مُرتخيا إلا أسبلته ، ولم تبق لهؤلاء
الأشقياء مطمعا ولا صريخا الا استلبته) (٢٩) .
والحجب الثلاثة هي : الحجاب الذي أكنّ
القلب ، وحجاب الصّم ، والحجاب الحائل
الخارج .

٤ - المعاني المخترعة البديعة التي تجود بها
قرائح الشعراء ، وذوي الفطن من الأدباء ، وهي
كثيرة في الأدب العربي .

ومن ذلك ما قاله أعرابي في ذم رجل : يكاد
يعدي لؤمُه من تسمّى باسمه ، وما قاله آخر في
ذم رجل أيضا : ما ميراثُه من آدم إلا أنه سُميَ
آدميا .

وكقول ابن الرومي في مثل هذا المعنى :
أبي وأبوك الشيخ آدمُ تلتقي
منابتنا في مُلتقى منه واحدٍ

فلا تُلحني حسبي من الخزي أني
وإيّاك ضمتني ولادة والد
فلولم تكن في ظهر آدم نطفة
لخرّ له إبليس أول ساجد

وكقول إبراهيم بن العباس في قصر الليل :

(٢٧) كان جماعة من الشعراء اذا سئل أحدهم عن نسبه انتسب الى
قصيدة من شعره يشير الى انها اجمل قصائده عنده .

(٢٨) سورة فصلت . الآية ٥ .

(٢٩) نقلا عن ابن المنير عند تفسير الزمخشري لهذه الآية الكريمة .



وليلة من الليالي الزُّهر
قابلتُ فيها بدرَها ببدري
لم تكْ غيرَ شفقٍ وفجرٍ
ثم تولّت وهي بكرُ الدهر

وقول الشريف الرضي في نفس المعنى :
يا ليلة كاد من تقاصرها
يعثرُ فيها العشاء بالسَّحر

هذا وإن كان فيه مجاز ، وهو - كما سبق -
أسلوب من أساليب المبالغة فيه معنى مخترع
وهو التعبير عن قصر الليلة بأن العشاء قريب غاية
القرب حتى أنه ليعثر بالسحر ، ولا بأس أن
يجتمع في معنى واحد أكثر من سبب للمبالغة .

ومن المعاني المخترعة - فيما أعرف -
المرقصة المطربة قول علي بن مفرج المعروف
بنشو الدولة لما احترقت دار ابن صورة بمصر :

أقول وقد عاينت دارَ ابن صورةٍ
وللنار فيها مارجٌ يتضرمُ
كذا كل ماله أصله من نهاوش

فعمّا قليل في نهابرَ يعدم^(٣٠)
وما هو الا كافرٌ طال عمره
فجاءته لما استبطأته جهنمُ

والشاهد في الشطر الأخير ، فما أذكر أني
رأيت له سلفا في الشعر العربي .

والمعاني المخترعة المبدعة كثيرة قديما

وحديثا ، وإن كانت راجت نظرية في القرن
الثاني الهجري تقول إن القدماء سبقوا إلى كل
معنى جيد ، ومن أسفي أن يسبح في هذا التيار
الشاعر الناقد ابن طباطبا العلوي فقد ردد هذا
المعنى في كتابه (عيار الشعر) ، ولكن ضياء
الدين بن الأثير يصيح قائلا : (باب الابتداع
للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذي
يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لانهاية
له)^(٣١) .

وكأنه يرد على ابن طباطبا العلوي الذي يقول
(والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدُّ
منها على من كان قبلهم لأنهم قد سبقوا إلى كل
معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ،
وخلابة ساحرة)^(٣٢) .

وفضيلة الشعر عنده في (إلطاف الحيلة ،
وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها
وتلييسها حتى تخفى على نقادها ، والبصراء
بها ، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق
بها)^(٣٣) .

٥ - الإيغال : وهو نوع من المبالغة ، ويكون
في القوافي - غالبا - ، وهو أن يستكمل الشاعر
معنى بيت بتمامه قبل أن يأتي بقافيته ، فإذا أراد
الاتيان بها أفاد بها معنى زائدا على معنى
البيت .

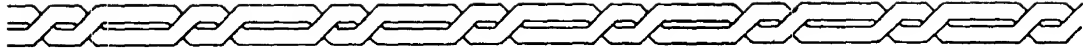
وقد امتدح الأصمعي هذا الصنيع ، وعده

(٣١) المثل السائر ج ٣ ص ٢١٩ .

(٣٢) عيار الشعر ص ٩ .

(٣٣) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣٠) النهاوش بالنون : المظالم ، والنهاير : المهالك ؛ واحداها
نَهيرة ونُهيرة بضم أولهما . ونشو الدولة هذا المصري غير نشو
الدولة الدمشقي أحمد بن عبد الرحمن ، توفي المصري سنة
٦٢٠ هـ وتوفي الدمشقي سنة ٦٠١ هـ .



أمانة على تقدم الشاعر ونبوغه ، وذكروا أن من
الأبيات الرائعة في هذا النوع قول الخنساء :

وإن صخرًا لتأتّم الهدأة به
كأنه علّم في رأسه نار

قال صاحب (تحرير التحبير) : (ومعنى
جملة البيت كامل دون قافيته ، وفيه بوجودها
زيادة لم تكن قبلها ، فإن هذه المرأة لم ترض
لأخيها بأن يأتّم به عليّة الناس حتى جعلته علماً
يأتّم به أئمة الناس ، ولم ترض تشبهه بالعلم -
وهو الجبل المرتفع المعروف بالهداية - حتى
جعلت في رأسه ناراً) .

ومن ذلك قول الأعشى في وصف (هريرة)
التي ذكرها في أول قصيدته : (ودع هريرة) :

غراء ، فرعاء ، مصقول عوارضها

تمشي الهويناء كما يمشي الوجي الوحل (٣٤)

فقد تم التشبيه عند قوله (الوجي) ، ولكنه
جاء بالقافية فزادت المعنى مبالغة .

قال ابن رشيق في (العمدة) بعد أن ذكر هذا
البيت : وكان الرشيد كثير العجب بقول صريع
الغواني في الخمر :

إذا ما علت منا ذؤابة شارب

تمشّت به مَشْيَ المقيّد في الوحل

ويقول : قاتله الله . ما كفاه أن جعله مقيدا

حتى جعله في الوحل .

قال ابن رشيق : إنه صنيع الأعشى بعينه .
وأكثر علماء البلاغة يرون أن الإيغال يكون
في الشعر خاصة - كما أشرت آنفاً - ، ومنهم من
قال أنه يكون في الفقرة من النثر ، ومثلوا له من
القرآن الكريم بقول الله تعالى : ﴿ أنك لا تسمعُ
الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا
مُدبرين ﴾ .

فالمعنى قد تم بقوله سبحانه : ﴿ ولا تسمع
الصمّ الدعاء ﴾ ثم جاء : ﴿ إذا ولّوا ﴾ فكان فيه
مبالغة ، وكان يمكن الاكتفاء به ، ولكن لما كان
التولي قد يكون بجانب ، كما قال تعالى في آية
أخرى : ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ ، وكان المراد
إيفاء معنى إعراضهم حقّه جيء بكلمة
« مدبرين » التي أفادت أنه لا فائدة مطلقاً في
إسماعهم ، إذ كيف تسمع من احتجب عنك
بِكُلِّيَّتِهِ . وقوله تعالى : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين
اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ فقد تم
الكلام قبل « هم مهتدون » إذ الرسول مهتدٍ لا
محالة لكن فيه زيادة مبالغة في الحشر على اتباع
الرسل ، والترغيب فيه .

٦ - من أنواع (التتميم) (٣٦) ما يكون
الغرض منه المبالغة ، وذلك نحو قوله تعالى في
وصف الأبرار : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه
مستكينا ويقيموا أسيراً ﴾ (٣٧) .

(٣٥) سورة النمل الآية ٨ .

(٣٦) التتميم هو أن يؤتى في كلام لا يومه خلاف المقصود بفضلة لكنة
كالمبالغة ، فإذا اوهم الكلام غير المقصود فهو التكميل ، ويطلق
عليه الاحتراس .

(٣٧) سورة الانسان ، الآية ٨ .

(٣٤) غراء : بيضاء . فرعاء : طويلة لشعر . العوارض : الأسنان .
الوجي : الذي يشتكي حافره . والإيغال - في اللغة - هو سرعة
السير ، يقال : أوغل في السير إذا بلغ غاية قصده بسرعة .
ويستعمل في المبالغة في الشيء . يقال : فلان يوغل في
الأرض ، أو يوغل في القراءة : أي يبالغ .



ومن أمثلته في غلبة الهوى قول المجنون
(مجنون بني عامر) :

بالله يا طبيبات القاع قلن لنا
ليلاي منكن أم ليلى من البشر
وقد أكثر الشعراء من القول في هذا اللون ،
وتفننوا فيه غاية التفنن ، وأتوا فيه بالمعجب
المطرب .

قلت في أول هذا الفصل أن صيغ المبالغة
وأساليبها كثيرة في العربية ، ولكن يكفي هذا
القدر منها فهو ما يمكن أن يستساغ في هذا
البحث .

مواقف العلماء والنقاد من المبالغة

لا أظن أن لونا من ألوان البديع كثر حوله
الخلاف واشتد كهذا اللون ، فالعارفون ما بين
مستحسن له ، مغالٍ في تقديره ، ومستهجن
له ، زارٍ عليه ، وعلى من يزاوله ، وفريق ثالث
وسط بين الغالين والزارين ، ولا نكاد نجد مؤلفا
في البلاغة أو في النقد لم يكن له موقف منه ،
مادح أو ثالب أو بين بين ، ولو ذهبنا نستقصي
لطال بنا الحديث ، وخرجنا عن التدبير اللائق
بمثل هذا البحث ، ولكننا سنكتفي هنا - أيضاً -
بما لا يشينه التقصير ، ولا تثقل به المغالاة .

١ - من العلماء بالشعر الذين فضلوا
الاقتصاد في أداء المعاني أبو العباس محمد
ابن يزيد المبرد ، فقد أورد قول الشاعر :

فلو أن ما أبقيت مني معلق
بعود ثمام ما تأود عودها

وذلك أنه يجوز أن يعود الضمير في :
« حبه » على الطعام فيكون المعنى أنهم يبذلون
الطعام مع حبهم له ، وذلك هو الجود الحق ،
فكلمة « على حبه » أفادت المبالغة في وصفهم
بالسخاء ، والإنفاق المحمود .

ومثاله من الشعر قول زهير بن أبي سلمى في
مدح هريم بن سنان :
من يلق يوما على علّاته هريما
يلق السماحة منه والندى خلقا

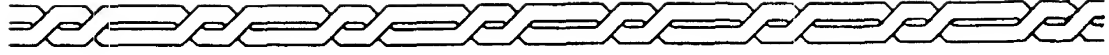
فقوله : (على علّاته) تتميم للمبالغة ، وقد
وقع في غاية الحسن ؛ لأن الذي لا يصرفه ما
يعتريه من نقص في ماله ، أو سوء حال في نفسه
عن السماحة والندى يكون غاية في الكرم .

٧ - ومن أغراض (تجاهل المعارف) قصد
المبالغة في المدح أو في الذم أو في غلبة الهوى
على نفس العاشق ، ومن أمثلته في الذم قول
زهير بن أبي سلمى :

وما أدري ولست أخال أدري
أقوم آل حصن أم نساء

فقد قيل : إن هذا البيت من أشد ألوان
الهجاء لما فيه من التشكيك ، ولو أنه قال إن آل
حصن نساء لما كان لا ذعا ، إذ يكون كلامه خبرا
يتوجه إليه التصديق والتكذيب بادية ذي بدء ،
لكن هذا التشكيك يحمل السامع على التفكير
والترؤي حتى يصل إلى حقيقة هؤلاء القوم ،
ومن هنا جاءت المبالغة .

على أن التشكيك نفسه - لما فيه من السخرية
والاستهزاء - موجه مؤلم .



وقال : إنه متجاوز ، كقول القائل (في وصف فرسه) :

ويمنعها من أن تطير زمامها

ثم قال : وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبه بفطنته على ما يخفى على غيره ، وساقه برصف قوي واختصار ، قال قيس بن معاذ :

وأخرج من بين البيوت لعلني
أحدث عنك النفس في السر خاليا
وإنني لأستغشي وما بي غشية
لعل خيالا منك يلقي خيالها

٢ - ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي صاحب كتاب : [عيار الشعر] فقد أشاع في هذا الكتاب تفضيله الاقتصاد في أداء المعاني ، وإشادته به ، فهر مرة يقول بعد أن يذكر أن كل حاسة من حواس البدن تتقبل ما يتصل بها : (والفهم يأنس من الكلام بالعدل ، الصواب ، الحق ، والجائز المعروف المألوف . . . ويستوحش من الكلام الجائر ، والخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر ، وينفر منه ، ويصدأ له) (٣٨) .

ومرة أخرى يرى أن أجزاء الشعر الجيد هي : (اعتدال الوزن ، وصواب المعنى ، وحسن الألفاظ) (٣٩) ، ويرى أن مما يضاعف حسن المعاني تأييدها (بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها ، والتصريح بما كان يكتُم منها) (٤٠) . (أو

تودع حكمة تألفها النفوس ، وترتج لصدق القول فيها ، وما أتت به التجارب منها ، أو تضمن صفات صادقة ، وتشبيهات موافقة ، وأمثال مطابقة تصاب حقائقها) (٤١) .

وهنا أحب أن أنبه إلى فضيلة سبق إليها ابن طباطبا ، وهي أن الشاعر اذا عبّر عن ذات نفسه وجد صدى ذلك في نفوس الآخرين ، وكأنه يقول إن الخلجات النفسية ؛ والتجارب العاطفية ، والاحساس بالحياة وما يضطرب فيها من خير ومن شر ، ومن حلو ومر كلها متشابهة عند بني البشر قال ولذلك (يبتهج السامع لما يرد عليه مما قد عرفه طبعه ، وقبله فهمه ، فيثار بذلك ما كان دفيناً ، ويبرز به ما كان مكنوناً) (٤٢) .

وإنما نبهت على ذلك لأنني رأيت بعض الباحثين المحدثين ينسب هذه الفضيلة إلى باحث غربي ، ولو تنبه لوجد في هذه اللوحة البارة التي سبق بها ابن طباطبا غناءً يلقته إلى الاشادة بمجد قومه دون أن يتعالم بالتمسح بالآخرين .

دقيقة أخرى لهذا العالم ، الشاعر ، الناقد ابن طباطبا - وكم له من دقائق - وهي أنه يمدح الشاعر حين يلتزم الصدق الواقعي في شعره ، وينأى به عن (الخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر) ، وحين يصدق التعبير عما في نفسه ، وعما عرفه من تجارب ، فيقتصر (أشياء هي قائمة بالنفوس والعقول فيحسن

(٣٨) عيار الشعراء ص ١٤ .

(٣٩) ص ١٥ .

(٤٠) ص ١٧ .

(٤١) ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٤٢) ص ١٢٠ .



العبارة عنها ، وإظهار ما يكمن في الضمائر منها) .

وبذلك أشار بوضوح إلى ما يسميه النقاد المحدثون (الصدق الفني) ، ولقد أفصح عن هذا المعنى غاية الإفصاح حين تحدث عن (الشعر الحسن اللفظ ، الواهي المعنى) (٤٣) إذ قال : (ومن الأبيات الحسنة الألفاظ ، المستعذبة ، الرائقة سماعا ، الواهية تحصيلًا ومعنىً ، وإنما يستحسن منها اتفاق الحالات التي وضعت فيها ، وتذكر اللذات بمعانيها ، والعبارة عما كان في الضمير منها ، وحكاية ما جرى من حقائقها ، دون نسج الشعر وجودته ، وإحكام رصفه وإتقان معناه) .

وبعد أن أورد الأبيات قال : (فالمستحسن من هذه الأبيات حقائق معانيها الواقعة لأصحابها الواصفين لها دون صنعة الشعر ، وأحكامه) .

فحسن هذه الأبيات وأشباهها عنده يرجع إلى صدقها الفني ، وإلى ألفاظها العذبة ، وإن لم تكن فيها صنعة لطيفة ، ولا نسج محكم جيد .

غير أن هذا الشاعر الذواق ، وإن حامى عن الصدق غفل - كغيره ممن سلكوا نهجه - فاستحسن معاني بينها وبين الصدق بؤن بعيد .

فهو - مثلاً - يورد قصيدة للفرزدق في رثاء بشر ابن مروان ، ويعدها من الأشعار المحكمة ، المتقنة ، المستوفاة المعاني ، الحسنة الرصف ، السلسة الألفاظ ، التي خرجت

خروج الشر سهولة ونظاما ، فلا استكراه في قوافيها ، ولا تكلف في معانيها ، ولا داعي لأصحابها فيها) ، وفي القصيدة هذه الأبيات :

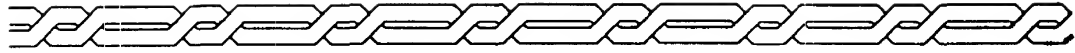
ولو أن قوما قاتلوا الدهر قبلنا
لشيء لقاتلنا المنية عن بشر
فألا تكن هند بكته فقد بكت
عليه الثريا في كواكبها الزهر
ألم تر أن الأرض هدت جبالها
وأن نجوم الليل بعدك لا تسري ؟ !

فهل هناك مجافاة للصدق أبعد من هذه المعاني ؟ .

وإذا كان في البيت الأول الحرف (لو) ، وهو مما يجعل المبالغة مقبولة مع أن المؤلف لم يشر إلى ذلك ، بل تجاهله في أشعار قال أن قائلها أغرقوا في معانيها ، فإن البيتين الثاني والثالث خاليان من كل أداة تقرب ما فيهما من معاني من الامكان ، ومن يقبل حتى من الذين يعجبون بالمبالغة الرائعة أن الثريا أقامت على بشر مأتما مع كواكبها الزهر ، وأن الجبال هدت ، ونجوم الليل اختفت ، وكفت عن السريان ؟ .

ومن الأبيات التي جاءت فيها (لو) وعدها ابن طباطبا من الاغراق في المعاني قول الطرماح ابن حكيم :

لو كان يخفى على الرحمن خافية
من خلقه خفيت عنه بنو أسد



وقول زهير :

فلست أرى أوضح من هذا الإيماء ، ولا
أعذب ولا ألطف من تلك الإشارة ، ولا أوقع في
النفس من هذا الغزل الرقيق .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قومٍ بأولهم أو مجدهم قعدوا

وقول بكر بن النطاح :

٣ - ولعل موقف الأمدي من قضية المبالغة
في إثارة الصدق ، والإشادة به ، والاستحسان -
أيضاً - لبعض المعاني المغرقة في الخيال لا
يختلف كثيراً عن موقف ابن طباطبا ، ويزيد عليه
أنه استحسّن معاني لا فضيلة فيها الا السّذاجة
والسطحية ، وحسبها - عنده - أن تكون
صواباً !!

لو صال من غضب أبو دُلفٍ على
بيضِ السيوف لذبّ في الأغماذ
ولشدة ولوع هذا المؤلف بالوضوح ،
وبالواقعية عاب من الشعر غير معيب ، فهو
يصف بَيْتِي المثقب العبدى في وصف ناقته :

ذكر أبياتا للبحثري تنتهي بهذا البيت :
وما كلُّ نيران الجوى تحرق الحشا
ولا كلُّ أدواء الصّباية يقتل
ثم قال : (وقد كان قوم من الرواة يقولون :
أجود الشعر أكذبه ، ولا ، والله ، ما أجوده إلّا
أصدقه) (٤٦) .

تقول وقد درأت لها وُضيني
أهذا دينه أبداً وديني (٤٤)
أكُلّ الدهر جِلّ وارتحال
أما يُبقي عليّ ولا يقيني
بأنهما من الشعر (البعيد الغلق) ، وأن هذه
(الحكاية كلها عن ناقته من المجاز المباعد
للحقيقة) .

ويقول في موضع آخر : (ومن جذّق الشاعر
أن يصوّر الأشياء بصورها ، ويعبّر عنها بألفاظها
المستعملة فيها ، واللائقة بها ، وذلك مذهب
البحثري وصناعته ، ولهذا ما كثر الماء والرونق
في شعره ، وقالوا : لشعره ديباجة ، وما قيل
ذلك في شعر أحد من المتأخرين غيره) (٤٧) .

ولا أدري كيف عدّ (من الإيماء المشكل
الذي لا يُفهم) والذي (أفرط قائله في حكايته)
وأنه كلام (ليس مما يدل عليه إيماء ، ولا تعبّر
عنه إشارة) قول الشاعر :

ويذكر أن المطبوعين ، وأهل البلاغة لا
يكون الفضل عندهم باستقصاء المعاني ،
والاغراق في الوصف ، وإنما يكون بأخذ

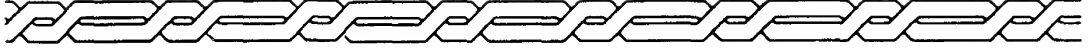
أؤمت بكفّيها من الهودج
لولاك هذا العام لم أحجج
أنت إلى مكة أخرجتني
حُبّاً، ولولا أنت لم أخرج (٤٥) ؟!

(٤٥) عيار الشعر ص ١٢٠ .

(٤٦) الموازنة ج ٢ ص ٥٨ . تحقيق السيد صقر .

(٤٧) ج ٢ ص ١٩٩ .

(٤٤) درأت وُضين البعير : إذا بسطته على الأرض ، ثم أبركته عليه
لتشدّه به . الوضين : بطن عريض منسوج من سيور أو شعر ،
والبطان الحزام الذي يلي البطن . دينه : عادته وشأنه .



العفو ، مع جودة السبك ، وقرب المأتى ، كما كانت الأوائل تفعل) قال : (والقول في هذا قولهم ، وإليه أذهب)^(٤٨) .

وحين يذكر بيتين لأبي العتاهية فيهما مبالغة مسرفة في وصف الخصور (يلبسن الخواتم في الخصور) يقول : (وكل مادنا من المعاني من الحقائق كان ألوط بالنفس ، وأحلى في السمع ، وأولى بالاستجادة)^(٤٩) .

وكثيرا ما يمتدح شعرا لقرب المأخذ ، ولأنه لم تثن وجهه الاستعارة البعيدة ، ولا المعنى المتمحل^(٥٠) .

غير أنه يذكر أن (بزرجمهر) جعل فضائل الكلام خمسا ، منها أن يكون الكلام صدقا ، ويعلق عليه بقوله : (والشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صادقا)^(٥١) ، وإذا فقد يحقق فضيلة الكلام دون أن يكون صادقا .

وقد يقال أن الأمدى يفضل الصدق ولكنه لا يطالب الشاعر به فما قيمة التفضيل إذا ؟ ثم إذا كان الشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صادقا فإلى أي حد يسمح للشاعر في مجال الكذب ؟ كان على الأمدى أن يبين في هذا الموضع القدر الذي يُسمح فيه للشاعر بأن يتنكر للصدق .

على أن الأمدى يعجب بمعاني بينها وبين الصدق بون بعيد ، كصاحبه ابن طباطبا ، فهو يذكر قول أبي تمام في مدح المعتصم :

إلى قُطْب الدنيا الذي لو بفضله
مدحتُ بني الدنيا كفتهم فضائله
ويعلقُ عليه بقوله : (وهذا تفضيل في غاية الاستقصاء والجودة والحسن والصحة)^(٥٢) .
وسواء كان هذا في مدح خليفة أو غيره فهو مجاوزة زائدة للحد ، ولا يقال ان موضع لو خفف من هذه المبالغة ، فإن الأمدى لم يشر إليها هنا ، ثم ان وصف هذا المعنى (بالصحة) غاية في الغرابة .

وكذلك نراه يشيد بأبيات للحارث المخزومي فيذكرها ويعقب عليها بقوله : (وأحسن كل الإحسان وأغرب)^(٥٣) ، والرائع من الأبيات قوله عن الديار الدوارس ، ولطيف اهتدائه إليها :

إني وما نحروا غداة مِنى
عند الجمار تؤودها العُقل
لو بُدلت أعلى محاسنها
سُفلا وأصبح سفُلها يعلو
لعرفتُ مغناها بما احتملتُ
منِّي الضلوعُ لأهلها قبلُ
والأبيات حقيقة رائعة ، ولكنها ليست على شرط الأمدى ، فمن عجب أنه يجمع بين الإحسان الذي لا إحسان بعده والغرابة ، وهما فيما نفهم من مذهبه متباعدان .
وقد يقال إن الشاعر يخيل له ذلك لشدة شغفه بالديار كما قال الأول في ناقته :

(٤٨) ج ١ ص ٥٢٥ .

(٥٠) ج ١ ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .

(٥٢) ج ٣ ص ٣٥٠ .

(٥١) ج ١ ص ٤٢٨ .

(٥٣) ج ١ ص ٥٢٤ .

(٤٩) ج ١ ص ١٥٧ .



لا تفقها على السبيل ودعها
يهدا شوق من عليها السبلا

وهذا بيت رائع أيضاً مع غرابته ، وبعده عن
الصدق الواقعي . قد يقال هذا ، وينحى
بالأبيات منحى الصدق الفني ولكن الأمدي لم
يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى شيء من
هذا .

وقد حمله مذهبه في إثارة اللغو من القول ،
وحبه للبحثري حمله هذان على أن يستحسن
أبياتا كثيرة ليس فيها ما يستحسن .

فهو - مثلاً - يستحسن قول البحثري :

أما وفتور لحظك يوم أبقي
تقلبه فتوراً في عظامي
لقد كلفتنى كلفاً أعنى
به وشغلتنى عما أمامي
سيقتل في المسير إذا رحلنا
عليل كان يمرض في المقام
قائلاً في التعليق عليه : (وحسبك بهذا
حلاوة وحسناً) .

ولا أدري أين هي الحلاوة ؟ ، وأين هو
الحسن ؟ هل في (فتور العظام) ؟ أو في عليل
المقام الذي سيموت عند الرحيل ؟ !! .

لا أدري غير أن أقل ما توصف به هذه الأبيات
أنها تتضمن معاني ساذجة ، وتخلو من الألفاظ
الرشيقة ، والنسج اللطيف المحكم .

وأبيات كثيرة من مطالع البحثري احتفل لها
الأمدي ، وأطاب الثناء عليها ، وهي لا ترتفع
عن درجة هذه الأبيات الثلاثة التي تكفي -
عنده - حلاوتها وحسنها عن كل حلاوة وحسن !

فهذه المطالع - في رأيه - غاية في الحسن ،
والصحة والحلاوة . ومنها :
عند ظباء الرمل أو عينه
قلب مشوق القلب محزون^(٥٤)

لم تعرف الحق ولم تنصف
عين رأيت بيناً فلم تذرف
يشوقك تخويد الجمال القناعس
بأمثال غزلان الصريم الكوانس

فهل صحيح أن هذا كله من ذكر الظباء غاية
في حسنه ، وصحته ، وحلاوته ؟ !
وعندما يذكر ابتداء البحثري بقوله :

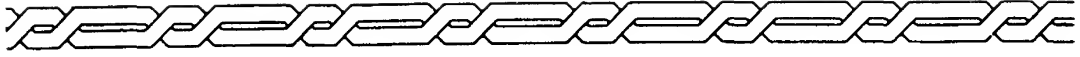
شوق إليك تفيض منه الأدمع
وجوى عليك تضيق عنه الأضلع
يعلق عليه بقوله : (وهذا من مشهور أبياته
في الحسن والجودة)^(٥٥) .

فهل أعجب الأمدي هذا التقابل بين شوق
وجوى ، وإليك وعليك ، وتفيض وتضيق ومنه
وعنه والأدمع والأضلع ؟ !

إن كان ذلك فما أهونه ، وإن كان المعنى
فالبيت سطحي المعنى ، وإذا صح أن يجد فيه
النقاد حلاوة فلن تبلغ هذه الحلاوة أن تجعل

(٥٤) الموازنة ج ٢ ص ٦٢ .

(٥٥) الموازنة ج ٢ ص ٦٦ .



البيت من مشهور أبياته في الحسن والجودة .

وكذلك علّق على البيت :

قلْبُ مشوقٍ عناه البثُّ والكمْدُ

ومقلّةٌ تبذلُ الدمعَ الذي تجد

بقوله : (تبذل الدمع الذي تجد) معنى ما لحسنه نهاية ، ولفظ في غاية البراعة والحلاوة (٥٦) .

فأي براعة ، وأي حسن في هذا الكلام ؟ ! . وهل زاد عن قول القائل : مقلّة تبذل ما عندها من الدموع ؟ .

بل اني لأزعم أنّ قوله : (الدمع الذي تجد) من مبتذل الكلام ، فكل عين تبكي إنما تبذل الدمع الذي تجد ، وكل إنسان إنما ينفق مما عنده ، فهذا معنى ساذج غاية السذاجة .

ولقد كاد ظني يتحول إلى يقين أن الأمدي متعصب شديد التعصب للبحثري ، فهو سخيّ كل السخاء في الثناء على ألفاظه وعلى معانيه ، وهو قد يجنح إلى الشطط ليدافع عن معنى عيب على البحثري ، ولقد وقعت في كتابه على أشياء من هذا القبيل ، وأكتفي بمثال واحد .

قال البحثري :

ألوت بموعدها القديم وأياست

منه بكّي بنانة لم تخضب

ولما كانت مذاهب الشعراء وصف بنان المرأة بالخضاب كان قول البحثري خروجاً على

المتعارف قال الأمدي : (ولا نعلم أحدا شرط في البنان أنه غير مخضوب غير البحثري في هذا البيت ، وإنما يذكرون الخضاب أو لا يذكرونه) .

والأمدي حريص على مذاهب الأوائل ، ولا يتسامح في الخروج عليها ، فكان لا بد له أن يصحح معنى البحثري ؛ فإن أمراً عزيزاً عليه أن يقول أن البحثري جانب الصواب حين خرج على المتعارف بين الشعراء وبين الناس ، وهو لا يظن أن (البحثري قال هذا عيا ولا جزافاً) .

فماذا صنع الأمدي ؟ أفترض أنه ذهب إلى أحد معنيين ، ونقف عند الأول . أفترض أن البحثري خطر بباله قول كثير عزة :

وإن حلفت لا ينقض النأي عهداً

فليس لمخضوب البنان يمين فأراد أن يزيد على كثير بأن (المرأة لا عهد لها مخضوبة البنان كانت أو غير مخضوبة) (فذلك بهذا البيت على أنه خطر ذلك البيت بباله فذهب إلى ذلك المعنى) .

لا أعتقد أن أحداً يوافق الأمدي على هذا الدفاع المتكلف ، والأمدي نفسه أحس بأنه غير موفق في هذا الدفاع ، فقال : (فهذا المعنى - إن شاء الله - جيد لائق) .

ولما ذكر الوجه الثاني قال : (وهذا أيضاً وجه قوي رقيق ، وكأنه أولى من المعنى الأول بالصواب . والله أعلم) (٥٧) .

(٥٦) الموازنة جـ ٢ ص ٢ .

(٥٧) جـ ٢ ص ٧٧ - ٧٨ .



على أن المعنى الثاني الذي قال الأمدي عنه أنه قوي ورقيق غير مسلّم ، وعندني ما ينقضه ، ولكن هذه الكلمة (حبسك الشيء يُعَمي ويصم) إذا صدقت في مواطن كثيرة فهي أصدق ما تكون في هذا الموطن .

وقد تنبه الأمدي - ولعله سلك طريق ابن قتيبة ، كما سنذكر - إلى أن المبالغة إذا قرنت بما يقربها من الإمكان تكون مقبولة مستساغة ، فقد أورد قول معاوية بن مرداس :
لو طار ذو حافر
من سرعة طارا

وقول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس . . . البيت . وقال أن مثل هذا (مذهب حسن معروف من مذاهبهم)^(٥٨) .

كذلك لم يعب من المبالغات ما خرج مخرج النوادر ، وإن خرج الشاعر به إلى المحال ، إذ يستحسن ذلك من الشاعر ، ولا يستقبح ، ومثل بقول المؤمل بن أميل :

من رأى مثل حبّتي
تشبه البدر إذ بدا
تدخل اليوم ثم تد
خل أردادها غدا

قال : ومثل هذا كثير^(٥٩) .

ولا ينكر الأمدي المبالغات التي تصحبها (كاد) أو (يكاد) - وهو - أيضا في ذلك تابع لابن قتيبة ، أو أخذ منه - فإن لم توجد (كاد)

قدّرها ، وهكذا فعل مع قوله تعالى : ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ أي لتكاد تزول ، وقوله تعالى : ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أي كادت تبلغ ، وفي قول الشاعر :
يتقارضون إذا التقوا في موطن
نظرا يُزيل مواطيء الأقدام

أي نظرا يكاد يزيل .

وقدّرها في بيت أبي نواس المشهور ، والذي يكاد يجمع علماء البلاغة على أن ما تضمنه مبالغة مرذولة :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه
لتخافك النطف التي لم تُخلق

وذكر هنا مبالغة النابغة في طول جيد المرأة :
إذا ارتعشت خاف الجبان رماثها
ومن يتعلّق حيث عُلق يفرق

وقال أنه قريب من بيت أبي نواس . بل أبو نواس أعذر ، لأن قوله : (لتخافك) يريد لتكاد تخافك ، وكذلك اعتبر إضمارها في الآية الأولى : (لتكاد تزول) قال : واللام إذا جاءت كانت أدل عليها^(٦٠) .

قال : والشعراء تسقط (تكاد) في الشعر ، وهي تريدها^(٦١) .

ثم عاد فذكر بيت النابغة هذا ، وذكر معه بيتا لذي الرمة في طول الجيد أيضا ، ثم قال : فهذه المبالغة لاثقة مستحسنة .

وقد ذكر في هذا الموضع تعليلين ، الأول ببيت النابغة ، والثاني لبيت ذي الرمة :

(٦٠) ج ١ ص ٤٠ - ٤١ .

(٥٩) ج ١ ص ١٥٥ .

(٥٨) ج ١ ص ١٥٣ .

ويشبه الحافر بالقُعب ، فمن قديم الشعر في ذلك قول امرئ القيس : (لها حافر مثل قعب الوليد) ، والقعب : قدح من خشب مقعر ، شبه به حافر الفرس في السَّعة ، والمغار : الحجر الذي يغور فيه ، أي يدخل ، وهذا من الممكن الذي يخرج العرب مخرج الواجب ، فظاهر الكلام أن الفأر يتخذ فيه مغارا على الحقيقة والوجوب ، والمراد أن الفأر لو فعل ذلك لأمكنه .

والشطر الذي ذكره العسكري صدر بيت لامرئ القيس :
لها حافر مثل قعب الوليد
سد ركب فيه وظيف عجر (٦٣)

وبكل هذه التخريجات وسَّع الأمدى مجال الاعتذار عن مبالغات الشعراء ، ولكن يبدو أنه بخل على أبي تمام بواحد منها .

ثم بعد كل هذا يعترف الأمدى راضيا بأن دقيق المعاني ولطيفها ، هما ضالة الشعراء . قال بعد أن ذكر أن أهل النصفة من أصحاب البحري ، ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكلفه لا يرفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها ، قال : (وإذا كان هذا هكذا فقد سلموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء وطلبتهم ، وهو لطيف المعاني) .

ثم ذكر أن امرأ القيس إنما قدم على غيره من

الأول : بتقدير (لو) : قال (أي لو كان - يريد القوط - مما يقع منه الخوف لخاف) .

الثاني : لأنه دل على الوصف - يريد ذا الرمة - بالشيء الذي يخص الموصوف ، لا بالشيء الذي يخص غيره (٦١) .

وتقدير لو عند الأمدى كتقدير كاد يلجأ إليهما ما احتمل الكلام أن يقدرهما ، فلقد ذهب في قول أبي العتاهية الذي ذكرته سابقا : (يلبسن الخواتم في الخصور) إلى تقدير (لو) فقال : (لم يرد أن خواتمهن في خصورهن لأن هذا محال ، وإنما ذهب إلى مثل قولهم : جفنة يقعد فيها خمسة ، أي لو قعدوا فيها لو سعتهم ، وقال الآخر : (عوف بن عطية بن الخزاع) :

لها حافر مثل قُعب الوليد
سد يتخذ الفأر فيه مغارا
أي لو اتخذ فيه مغارا لوسعه ، فكذلك قوله : (يلبسن الخواتم في الخصور) أي تصلح خصورهن أن تدخل في خواتمهن لدقتها على المبالغة (٦٢) .

وهو في هذا - أيضاً - تابع لابن قتيبة . فقد ذكر بيت عوف هذا ، وذكر ما ذكره الأمدى ، (في كتابه المعاني الكبير ج ١ ص ١٦٩) .

وكذلك أورد أبو هلال العسكري في (ديوان المعاني ج ٢ ص ١١٤) الشطر الأول ، قال :

(٦١) أي تباعد جبل العنق من القوط لأنها طويلة العنق .

أ هـ . هامش الموازنة .

(٦٢) ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

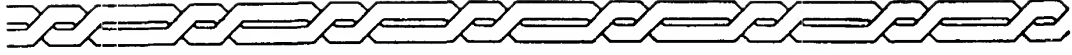
(٦٣) ذكر ذلك الأستاذ سيد صقر في هامش الموازنة ج ١ ص ١٥٧ .

(٦١) ج ١ ص ١٥٦ . وبيت ذي الرمة :

والسقوط في حرة الذفرى معلقة

تباعد الجبل منه فهو يضطرب

(حرة الذفرى : موضع مجال القوط . تباعد الجبل منها :



يجعل الصدق مقابلاً للباطل ، ومرادفاً للحق ، فهو - إذاً - يريد الصدق الواقعي ، لا الصدق الفني ، في هذا الموضع ، ويؤيد ذلك أنه فسر الصدق في قولهم : (خير الشعر أصدقه) بأنه (ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروض جِماحَ الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين مواضع القبح والحسن في الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال) .

ولا غرابة في ذلك من فقيه شافعي ، أشعري .

ثم يقول : (وقد ينحى به الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه)^(٦٦) .

وهو في هذا التفسير الأخير يوافق ما نقله الأمدى إذ يقول : (وقالوا - يريد أهل العلم - في معنى قول عمر بن الخطاب : وكان - زهير ابن أبي سلمى - لا يمدح الرجل إلا بما في الرجال) إنه أراد لا يمدح السوقة بما يمدح به الملوك ، ولا يمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصعاليك والأبطال وحملة السلاح ، فإن الشاعر إذا فعل ذلك فقد وصف كل فريق بما ليس فيه)^(٦٧) .

وهذا - أيضاً - ما ترجمه عبد القاهر عند شرحه لقول ابن المعتز : (والشعر يكفي عن صدقه كذبه) حيث قال : (إذ يبعد أن يريد الكذب إعطاء الممدوح حظاً من الفضل

الشعراء) لأن الذي في شعره - من دقيق المعاني ، وبديع الوصف ، ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة - فوق ما في أشعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام ، ولولا لطيف المعاني ، واجتهاد امرئ القيس فيها ، وإقباله عليها لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر الشعراء من أهل زمانه : إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم)^(٦٤) .

ومن الإنصاف أن نقول إن الأمدى كثيراً ما يعجب بأشعار لأبي تمام ، وإن كان حين يعيب شيئاً من شعره يقسو عليه ، ويعاسره الحساب ، وقلما يفعل ذلك مع البحتري .

٤ - ويعقد الشيخ عبد القاهر الفصل الذي نوهنا به في أول هذا البحث ، ويخلص منه إلى تفضيل الصدق ، وذلك حيث يقول : (والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول - ما يجري من العقل على أصل صحيح - وتقديره ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع منكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم ، وإن قُضي له ، والحق مفلج ، وإن قُضي عليه)^(٦٥) .

وهو بذلك يتفق مع الأمدى وغيره ممن يؤثرون الصدق ، وإن كان الأمدى لا يقف عند نصرة العقل ، وإنما يحتج بالطبع ، وما جرى عليه الأوائل .

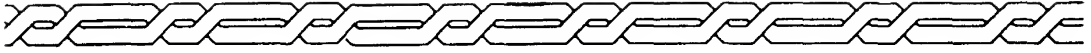
والواضح من عبارة عبد القاهر السابقة أنه

(٦٦) المصدر السابق ص ٢٢٠ .

(٦٧) الموازنة ج ١ - ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٦٤) ج ١ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٦٥) أسرار البلاغة ص ٢٢٢ .



والسؤود ليس له ، ويبلغه بالصفة خطأً من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله (٦٨)

فابن المعتز عند عبد القاهر ينكر على من يكلفونه حدود منطقهم أن يلزموه أن يجري مقاييس الشعر على حدود المنطق ، يأخذ فيه بالقول المحقق ، حتى لا يدعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان .

وكذلك نحا عبد القاهر منحى الأمدي حين فسّر قولهم : (خير الشعر أكذبه) إذ يقول إنهم لم يقولوا : خير الشعر أكذبه ، وهم يريدون كلاماً غفلاً ساذجاً ، يكذب فيه صاحبه ، ويفرط نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين : إنك أمير العراقين ، ولكن ما فيه صنعة يعمل لها ، وتدقيق في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفة ، وفهم ثابت ، وغوص شديد (٦٩) .

وهذا ترجمة قول الأمدي : (لا يمدح السوق بما يمدح به الملوك . . . الخ)

أما الجزء الأول من عبارة عبد القاهر في تفسير الصدق فقد نحا فيه منحى ابن طباطبا الذي لا يقول : (وتودع - أي الأشعار - حكمة تألفها النفوس ، وترتاح لصدق القول فيها ، وما أتت به التجارب منها) (٧٠) .

قلت : إن عبارة عبد القاهر ظاهرة في أن المراد بالصدق ما يطابق الواقع ، والكذب ما فيه صنعة يتأنق لها الشاعر .

وقد راق لبعض الباحثين المحدثين أن يحمل كلام عبد القاهر مالا يحتمل فينسب إليه أنه إنما أراد بالصدق ، الصدق الفني ، ولكن عبارات عبد القاهر واضحة كل الوضوح كما هو ظاهر .

ومع ذلك فاننا نلمس في بعض الشواهد التي علق عليها عبد القاهر أنه يشير إلى الصدق الفني ، فقد ذكرت - أنفا - بيتي المجنون اللذين ذكرهما المبرد ، وأشار إلى أنه قارب فيهما الواقع ، وهو يعده من أحسن الشعر . وأحد البيتين قول المجنون :

وأني لأستغشي وما بي غشية
لعل خيالاً منك يلقي خيالها

فقد ذكره عبد القاهر ، وعلق عليه بقوله : (قد يتصور أن يريد المغرم المتيّم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه في المنام ، وإذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فاعرفه) (٧١) ، فكأن عبد القاهر يقول أن الشاعر هنا لا يكذب ، وإنما يعبر عن شيء قد يعرض له ، فهو قريب من الواقع .

ولعل عبد القاهر استأنس في ذلك بقول المبرد ، أو لعله استأنس بما ذكره ابن قتيبة في ترجمة عبد بني الحسحاس ، فقد عاب بعض أبيات المبالغة التي تجافي الواقع ، ولم يستحسن منها إلا قول هذا الشاعر :

فما زال بُردي طيباً من ثيابها
إلى الحول حتى أنهج البردُ باليا
وقدّمه بقوله : (ومما أخذ عليه قوله ، وذكر

(٧٠) عبار الشعر ص ١٢٠ .

(٧١) الأسرار ص ٢٤٢ .

(٦٨) الأسرار ص ٣٢٠ .

(٦٩) الأسرار ص ٢٢٤ .

مبالغات - : وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ، وينسبها فيه إلى الإفراط ، وتجاوز المقدار ، وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا .

وعنده أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم من هذا اللون اقترنت به كاد أو يكاد ، فإذا خلت الآية من كاد ففيها تقديرها .

فمن النوع الأول قول الله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ (٧٤) .

أي أنهم ينظرون إليك نظرا قويا شزرا ، ملؤه العدواة والحقد حتى يكادوا يزحزحونك عن مكانك .

وقوله سبحانه : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ (٧٥) .

ومن الثاني قوله عز وجل في وصف حال المسلمين يوم الأحزاب ، وقد بلغ منهم الخوف كل مبلغ : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ (٧٦) .

والقلوب لا تبلغ الحناجر ، ويبقى الناس أحياء ، ولكن من شدة الخوف والفرع كادت تبلغ .

وقوله سبحانه : ﴿ وقد مكروا مكروهم وعند

التقاء وعشيقته) ، ثم عقب عليه بقوله : (وقال آخرون : هو على التوهم لفرط العشق ، وهو نحو قول الأعرابي حين قيل له : ما بلغ من حبك لها ؟ فقال : إني لأذكرها وبينني وبينها عقبة الطائف فأجد من ذكرها ريح المسك) (٧٢) .

وقد ذكرت فيما سبق عبارة ابن طباطبا الواضحة في الصدق الفني : (إذا أيدت - المعاني - بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها) فليس بعيد ولا مستغرب أن يكون نقادنا القدامى عرفوا الصدق الفني بجانب الصدق الواقعي .

أما المجيزون للمبالغة ، المستحسنون لها ، فمنهم :

١ - النابغة الذبياني ، فقد سئل : من أشعر الناس ؟ فقال : من استجيد كذبه ، وأضحك رديئه .

وربما دلّ على مذهبه في المبالغة ما روي من نقده لحسان بن ثابت - إن كانت القصة صحيحة (٧٣) - ، وذلك أن أكثر نقده كان عيبا على حسان أنه لم يحسن المبالغة .

وكذلك نجده يميل إليها في شعره .

٢ - ابن قتيبة في كتابه : (تأويل مشكل القرآن) إذ يقول - بعد أن ذكر أبياتاً فيها

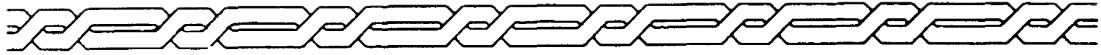
(٧٤) سورة (ن) . الآية ٥١ .

(٧٥) سورة مريم . الآيات ٨٨ - ٩٠ .

(٧٦) سورة الأحزاب الآية ١٠ .

(٧٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٠٨ - ٤٠٩ . ط . المعارف .

(٧٣) ذكر هذه القصة ، ودافع عن حسان قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) .



الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال^(٧٧) .

وقد سبق أن نقلنا قول الأمدي أن تقدير يكاد في هذه الآية أقرب لمكان اللام .

ثم ان في الآية الكريمة قراءتين :

الأولى : قراءة الجمهور بكسر اللام الأولى ، وفتح الثانية ، وعليها تكون (إن) نافية ، أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال .

الثانية : قراءة الكسائي بفتح اللام الأولى ، ورفع الثانية ، وتكون (إن) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، وعلى هذه القراءة يمكن ملاحظة إضمار تكاد .

ويرى ابن قتيبة تقدير كاد في كل ما كان من كلام العرب نحو هذا ، قال : (وليس بكذب ، لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه ، ونيتهم في قولهم : أظلمت الشمس : كادت تظلم)^(٧٨) .

هذا وإن كنا نجده في كتابه (الشعر والشعراء) يرمي بعض المبالغات بالكذب ، فلعله لاحظ أن تقدير كاد فيها غير سائغ ، على أن ما يبدو في كلمته هنا من التفريق بين (الإفراط وتجاوز المقدار ، بينهما وبين المبالغة) قد يجعلنا نميل إلى أن رأيه لم

يضطرب في الحكم على المبالغة .

٣ - قدامة بن جعفر : يذكر الغلو ، والاقتصار على الحد الوسط ، ثم يقول : (إن الغلو عندي أجود المذهبين) .

وقد ادعى أن هذا هو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، ونقل أن هذا مذهب فلاسفة اليونان في الشعر .

غير أنه يرفض ما لا يكون ، وما لا تصلح معه كاد ، ولذلك رفض قول أبي نواس :

يا أمسين الله عش أبدا
دُم على الأيام والزمن

ويعده من عيوب المعاني ، لأنه مما لا يجوز ، ويرى أنه ليس من الغلو الذي أجاز به هو خروج عن حد الممتنع الذي لا يجوز أن يقع ، والغلو - عنده - إنما هو تجاوز في نعت ما للشيء أن يكون عليه ، وليس خارجا عن طباعه إلى ما لا يجوز أن يقع .

ثم يقول : فإننا كنا قدمنا أن مخارج الغلو إنما هو على كاد ، وليس في قول أبي نواس : (عش أبدا) موضع يحسن فيه ؛ لأنه لا يحسن على مذهب الدعاء أن يقال : أمين الله يكاد يعيش أبدا^(٧٩) ، كما أنه يفرق بين المبالغة والغلو .

يكون أبلغ فيما قصدله (ص ١٦٠) .

ومع أن قدامة متقدم في المنطق نرى تعريفه أشبه بالشرح منه بالتعريف المتسم بالتحديد والضيظ ، ثم قصره المبالغة على الشعر مما لا وجه له إلا أن يقال أن كتابه في الشعر ، وهذا لا ينهض عذرا .

(٧٧) سورة ابراهيم الآية ٤٦ .

(٧٨) تأويل مشكل القرآن ص ١٧٣ ، ١٧٨ .

(٧٩) نقد الشعر ص ٦٣ ، ٦٥ .

وقد عرف قدامة المبالغة بقوله : (هي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما



٤ - وعلى ذكر فلاسفة اليونان نثبت هنا قول
أرسطو في المبالغة : (ينبغي على العموم أن
يسوغ المستحيل اعتمادا على الصفة الشعرية ،
أو على تحسين الواقع ، أو على الرأي الشائع
... ويفضل المستحيل المقنع على
الممكن)^(٨٠) .

ولا بأس أن نستطرد هنا قليلاً فنقول : إذا
كان أرسطو يفضل المستحيل ، والامام عبد
القاهر يرفضه فكيف يزعم الزاعمون أن عبد
القاهر إنما كان في بلاغته ملخصاً لأرسطو؟!

٥ - ومن المفسرين الذين يرون أن للمبالغة
شأناً في براعة الكلام وبلاغته فخر الدين
الرازي ، فقد ذكر عند تفسيره لقوله تعالى :
﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ...
الآية﴾ من سورة البقرة ، أن القرآن الكريم التزم
أشياء تقتضي عند العرب نقصان البلاغة ، ومع
ذلك جاء في غاية الفصاحة والبلاغة ، وذكر
من هذه الأشياء : (أن الله تعالى راعى فيه
طريقة الصدق ، وتنزه عن الكذب في جميعه ،
وكل شاعر ترك الكذب ، والتزم الصدق نزل
شعره ، ولم يكن جيداً ، ألا ترى أن لبيد بن
ربيعه ، وحسان بن ثابت لما أسلما نزل
شعرهما ، ولم يكن شعرهما الإسلامي في
الجودة كشعرهما الجاهلي ، وأن الله تعالى مع
ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن

فصيحاً كما ترى ؟) .

٦ - على أننا نجد النقد العلمي كثيراً ما يؤثر
المبالغة ، وفي ذلك من الأخبار ما لا يكاد
يحصى ، وسنكتفي هنا بخبرين اثنين : -

الأول : لقيت قطام - وهي التي حرّضت عبد
الرحمن بن ملجم على قتل علي بن أبي طالب -
كثيرَ عزة ، فقالت له : أنت القائل :

فما روضةً بالحزن طيبةً الثرى
يُمجُّ الندى جثجاؤها وعراؤها
بأطيب من أردان عزة مؤهنا
وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

قال : نعم . قالت : فضّ الله فاك ! أرايت
لو أن ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب ، أما
كانت تطيب ؟!!

ألا قلت ، كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تر أني كلما جئت طارقاً
وجدت بها طيباً وإن لم تطيب^(٨١)

الثاني : حكى محمد بن عبد الله الزيات عن
بعض الموالى ، قال : حضرت الفضل بن
يحيى وقد قال لأبي النضير : يا أبا النضير . أنت
القائل فينا :

إذا كنت من بغداد في رأس فرسخ
وجدت نسيم الجود من آل برمك

بضم الراء - وهو الكم. والموهن : الجزء الأخير من الليل ،

أو نحو منتصف الليل ، وقيل : هو بعد ساعة منه .

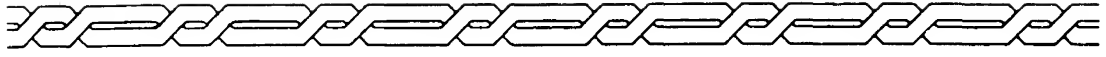
(٨٢) الأغاني ج ١١ ص ٣٨٦ ط دار الكتب .

(٨٠) فن الشعر ص ١٥٠ .

(٨١) الموشح للمرزباني ص ١٣٩ . وفيه (قالت امرأة لكثير عزة) ،

ولم يذكر أنها قطام . والحزن : الأرض الصلبة ، والجثجات

والعرار نباتان طيبان من نبات البادية ، والأردان : جمع ردن -



لقد ضيقت علينا جدا .

قال : فما قلت البيت كما بلغ الأمير ، وإنما قلت :

إذا كنت من بغداد منقطع الثرى

وجدت نسيم الجود من آل برمك

٧ - وقد نسبوا الاستحسان إلى طوائف ، والاستهجان إلى طوائف أخرى .

فقد نقلت - أنفا - قول قدامة : أن هذا - يريد الغلو - هو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، ومذهب فلاسفة اليونان .

كما نقلت قول الأمدى : أن لطيف المعاني هو ضالة الشعراء وطليبتهم ، وأن المطبوعين ، وأهل البلاغة إنما يكون الفضل عندهم في اللام بالمعاني .. الخ .

وقوله : وقد كان قوم من الرواة يقولون : أعذب الشعر أكذبه .

أما أبو الحسن علي بن عبد العزيز فيقول في (الوساطة) عن الإفراط إنه (مذهب عام في المحديثين ، وكثير في الأوائل) .

أما مذهبه هو فالتوسط لأنه يرى أن خير الشعر ما كان فيه التوسط ، والاجتزاء بما قرب وعرف ، والاقتصار على ما ظهر ووضح ، إذ يرى أن الصدق يخرج المعاني عن طريق الشعر ، واتباع الرخص وإجراؤها على المسامحة يؤدي إلى فساد اللغة ، واختلاط الكلام (٨٣) .

وأما المرزوقي فيقول في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام : (ومنهم - يريد الناقدين - من اختار الغلو ... وعلى هذا أكثر العلماء بالشعر ، والقائلين له) .

ويضيف المرزوقي إلى القسمة الثنائية : (أحسن الشعر أصدق) و (أحسن الشعر أكذبه) رأي فريق ثالث ، يقول : (أحسن الشعر أقصده) ، وقال - نقلا عن هؤلاء - : (لأن علي الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعرا فقط ، فما استوفى أقسام البراعة والتجويد ، أوجلها من غير غلو في القول ، ولا إحالة في المعنى ... كان بالايثار والانتخاب أولى) (٨٤) .

ولعله يشير بذلك إلى رأي القاضي الجرجاني الذي أسلف نقله .

لكن المرزوقي ، وإن قال أن على الغلو أكثر العلماء بالشعر ، والقائلين له ، يعدد الخصال التي يتحقق بها عمود الشعر ، ويعد منها (الإصابة في الوصف) ، ويذكر عند بيان (عياره) الصدق ، وقول عمر بن الخطاب المشهور في زهير .

ثم يقول : (فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب ، فمن لزمها بحقها ، وبنى شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم ، والمحسن المقدم ، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهُمته منها يكون نصيبه من التقدم والاحسان ، وهذا

كسر ها ، وقالا : وهي لغة في (قط) ساكنة الطاء بمعنى حسب .

(٨٣) الوساطة ص ٦١ - ٦٢ .
(٨٤) ص ١٢ . وقد ضبط محققا الشرح كلمة (فقط) بتشديد الطاء مع

أشرت فيما سبق إلى وصفه القسم التخيلي بأنه مفتن المذاهب ، وأنه ذو شعب وشعوب لا يمكن حصرها ، فلا غرو أن يجد الشاعر مجالا واسعا للاختراع والابتكار ، ومدداً من المعاني لا ينضب معينه ، ويكون كما قال عبد القاهر : (كالمعترف في غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهي) .

وعلى الضد من ذلك يرى أنصار المبالغة أن المعاني الصادقة كالجواهر التي لا تنمي ، وكالحسناء العقيم ، وكالشجرة الرائعة التي لا تحمل ثمرا كريما .

ومن هنا يكون الشاعر كالمقيّد المُدانى قيده ، لا يجد مضطربا واسعاً ، فيملّ لأنه يورد معاني معروفة ، وصورا مشهورة .

وبعد أن يوردها عبد القاهر ، ويبدو كأنه مقتنع بها يكر عليها بالنقض ، وقبل أن نذكر ما نقض به هذه الحجج نحب أن نقول أن حديثه هنا بسط لما أجمله المرزوقي ، حيث يقول : (لأن قائله - يريد الغلو - إذا أسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف امتدّ فيما يأتيه إلى أعلى الرتبة ، وظهرت قوته في الصياغة ، وتمهّره في الصناعة ، واتسعت مخارجه وموالبه ، فتصرف في الوصف كيف شاء ؛ لأن العمل على المبالغة والتخييل لا المصادقة والتحقيق) .

وإن كان لعبد القاهر فضل العبارات الرائعة ، وزيادة رأي أنصار المبالغة في المعاني الصادقة

إجماع مأخوذ به ، ومتبع نهجه حتى الآن) .

وإذا كان المرزوقي وقدامة ذهباً إلى أن أهل الفهم بالشعر كما يقول قدامة أو إلى أن أكثر العلماء بالشعر كما يقول المرزوقي اختاروا الغلو ، فإن (الحاتمي) يقول قولاً يختلف قليلاً أو كثيراً عن هذين القولين السابقين ، فهو يقول : وجدت العلماء بالشعر يعيرون على الشاعر أبيات الغلو والإغراق ، ويختلفون في استحسانها ، واستهجانها ، ويعجب بعض منهم بها ، وذلك على ما يوافق طباعه ، واختياره ، ويرى أنها من إبداع الشاعر الذي يوجب الفضيلة له^(٨٥) .

الاحتجاج للمبالغة :

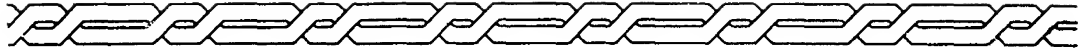
لعل أوسع ما قرأت في الاحتجاج للمبالغة وللقصد ما ذكره الشيخ عبد القاهر في (أسرار البلاغة) .

فالمؤثرون للقصد يرون أن ما يجري من العقل على أصل صحيح ثمره أحلى ، وفائده أظهر ، وحاصله أكثر .

وهذا الكلام نفسه يحتاج إلى أدلة تؤيده ، ولم يمدّ الشيخ باعه في بسط هذه الأدلة ، وإنما ساق أدلة الآخرين وشغل نفسه بالرد عليها .

وقد ذهب هؤلاء إلى أن الصناعة إنما يمدّ بأعها ، وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل .

وعبد القاهر لا ينكر هذا وإنما يؤيده ، فقد



ثم نعود إلى رده على هؤلاء ، فقد خطأهم في ظنهم أن المعاني الصادقة كالجواهر التي لا يرجى ازديادها ، وقال - متعجبا - : (ومن سلم أن المعاني المُغرقة في الصدق ، المستخرجة من معدن الحق ، في حكم الجامد الذي لا ينمى ، والمحصور الذي لا يزيد ؟ !!) .

وقد اضطره هذا الدفاع الى أن يوسّع دائرة (المعاني المُغرقة في الصدق) فأخرج الاستعارة من مفهوم التخييل الذي فسره بالكذب ، وبنى على هذا التفسير صنيعة بالاستعارة ، وقال : (وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن ، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفى) .

ومع أننا نتجاوز عن تفسيره للتخييل بأن (ما أثبتته غير ثابت ، وما نفاه غير منفي) ونقول أنه يُشبه التحكم ، ونتجاوز كذلك عن ادخال الاستعارة في باب التخييل في موضع من (أسرار البلاغة) حيث يقول : (رأيت أسدا تريد رجلا شجاعا . فالاسم الذي هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه ، وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به لقصد أن تبلغ فتضع اللفظ بحيث تخيل أن معك نفس الأسد) (٨٦) .

أقول : مع تغاضينا عن ذلك نُحجّج عبد القاهر بأنه أكثر في كتبه من القول بأن مبنى الاستعارة على المبالغة ، من مثل قوله : (بل الصواب أن نقصر الاستعارة على ما نقله نقل التشبيه للمبالغة) (٨٧) ،

وقوله : (إذا أنعمنا النظر وجدنا المنقول من أصل التشبيه على المبالغة أحق بأن يوصف بالاستعارة من طريق المعنى) (٨٨) . وقوله في نفس الصفحة : (على أن الاستعارة من أقسام البديع ، ولن يكون النقل بديعا حتي يكون من أجل التشبيه على المبالغة كما بينت) .

وعلى ذلك فحجج أنصار المبالغة قائمة سواء كانت مبنية على التخييل ، أو كانت عن طريق الاستعارة أو التشبيه ، فدفع عبد القاهر عن الصدق يكاد يكون مردودا هنا .

وتمسك أنصار الصدق كثيرا بأن ذلك يدل على الطبع ، وأنه طريقة الأوائل ، وأن المبالغة قد تُعمى المعنى ، وأنها دليل على عدم قدرة الشاعر على الاتيان بالمعاني الصحيحة كما يتمسك أنصار المبالغة بأنها دليل على قدرة الشاعر ، وعلى كمال براعته ، وأن الغرائب حبيبة إلى النفوس .

كما يتمسكون بأنها وردت في كتاب الله تعالى ، وفي حديث رسوله ﷺ ووردت كثيرا في كلام الفصحاء والبلغاء من القدامى والمحدثين .

وينقل صاحب العمدة أنه لو بطلت المبالغة ، وعيبت لبطل التشبيه ، وعيبت الاستعارة ، وذهب كثير من محاسن الكلام .

علماء البلاغة المتأخرون والمبالغة

ونقصد بهم العلماء أصحاب القواعد

(٨٨) الأسرار ص ٣٣٠ .

(٨٧) الأسرار ص ٣٢٨ .

(٨٦) ص ١٩٦ .

والضوابط والأصول ، ابتداء من فخر الدين الرازي الذي لخص كتابي عبد القاهر في كتابه : (نهاية الإيجاز) فيما يشبه القواعد ، وقد كان الفخر أستاذاً لأبي يعقوب السكاكي الذي أفاد منه كثيراً في كتابه (مفتاح العلوم) أو بعبارة أدق في القسم الثالث من مفتاح العلوم وهو القسم الخامس بالبلاغة ، ولكن اشتهرت مدرسة المتأخرين بمدرسة السكاكي ، لأن كل الذين جاءوا ممن شغلوا أنفسهم بالبحث في البلاغة جعلوا مفتاح العلوم أصلهم الذي يصدر عنه ، وتناسوا كتاب الفخر ، وهو الأصل في ضبط هذه العلوم : علوم البلاغة .

وإذا كانت هذه المدرسة تبتدىء - في رأينا - بالفخر فإنها لا تزال مفتوحة لا يكاد يخرج عنها باحث في البلاغة .

وقد نظر هؤلاء العلماء فيما قاله السابقون في شأن القصد والافراط ، وانتهوا إلى حصر القضية في التبليغ والاغراق والغلو ، وهذه فصول في باب عنوانه (المبالغة) وقالوا أن الحصر في هذه الثلاثة عقلي ، لأن الزيادة في المعنى إما أن تكون ممكنة عقلاً ، والعادة تجري بها ، أو ممكنة عقلاً ، ولم تجر بها العادة ، وإما أن تكون مستحيلة عقلاً ، وطبيعي أن تستحيل عادة ، أما القسم الرابع الذي قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، وهو الممكن عادة المستحيل عقلاً فغير واقع . وهذا ظاهر .

ثم كانت آراؤهم على النحو التالي :

١ - ان الأنواع الثلاثة مقبولة حتى يتسع مجال القول أمام الكتاب والشعراء ، ويكثر اختراع الصور .

٢ - انها مرفوضة بجمليتها وتفصيلها ؛ لأن في

الحقائق غنى عنها ، وبخاصة الغلو الذي تنفر منه الطبائع السليمة .

٣ - التوسط - وهذا رأي أكثرهم - فهم يقبلون أنواعاً ، ويرفضون نوعاً .

يقبلون التبليغ والاغراق دون شرط ، أما الغلو فيقبلون منه أنواعاً :

الأول : ما اقترن به ما يقربه من الامكان ، مثل كاد ولووِيخِيل لي ، وعجبت من كذا ، وقد مرت أمثلة لذلك .

ومن هذا النوع قول أبي صخر الهذلي :
تكاد يدي تندي إذا ما لمستها
وينبت في أطرافها الورق الخضر

وقول أبي العلاء المعري :

تكاد قيسيه من غير رام
تمكّن في قلوبهم النصلا
تكاد سيوفه من غير سل
تجد إلى رقابهم انسلا

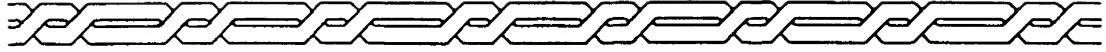
وقوله - وقد استعان بأداة التشبيه في التقريب - وهو يتحدث عن رحلة له ، ويذكر ناقته :

مُواصلَةٌ بها رحلي كأني
عن الدنيا أريد بها انفصلا

ومن هذا النوع أيضاً قول ديك الجن عبد السلام ابن رغيان :

ولو أن أحداث الزمان أردني
بخير وشر ما عرفن مكاني

وقول البحري في الخليفة المتوكل :



ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما
في وسعه لسعى إليك المنبرُ

وقول ابن زيدون :

ولو شاء حملي نسيم الصبح حين جرى

وافساکم بفتى أضناه مالاقي

ومنه قول المتنبي :

وعجبتُ من أرضٍ سحابٌ أكفهم

من فوقها ، وصخورها لا تورق

قال ابن رشيق : (على أن في قول أبي الطيب
بعض الملاحاة ، والمخالفة لطبعه في حبِّ
الافراط ، وقلة المبالاة فيه ؛ إذ كان ممكنا أن
يقول : ان الصخور أورقت) .

الثاني : ما تضمن نوعا حسنا من التخييل ،

يريدون تخييل الصحة ، وتوهمها ، وقد مثلوا
بقول المتنبي في خيل الحرب :

عقدت سناكبها عليها عثيرا

لو تبتغي عَنقاً عليه لأمكننا(٨٩)

قال ابن يعقوب المغربي في (مواهب
الفتاح) : (أي تخييل الصحة لكون ما اشتمل
على الغلو يسبق إلى الوهم إمكانه لشهود شيء
يغالط الوهم فيه فتبادر صحته كما يذاق من
المثال) (٩٠) .

ومعنى هذا أن هؤلاء العلماء أدركوا أن ما
يتصوره الوهم والخيال يكون مقبولا ، طالما أن له
أصلا يكون المعنى امتدادا له ، ويمكن أن نجعل
هذا أصلا لما يسمونه - في النقد الحديث -
(الصدق الفني) ، إذ الشاعر إنما عبر - هنا - عما
يحسه بشعوره لكثرة ما يرى من الغبار فوق رؤوس
الخيال ، وهذا الصنيع منهم يفتح بابا واسعا لقبول
كثير من المبالغات التي يبدو أنها في عداد
المستحيلات ، أو قريبة منها ، إذ يكفي أن
(يتوهم الشاعر ويتخيل) ، فهو إذا - يعبر عن ذات
نفسه ، ونذكر - هنا - بما نقلناه عن ابن قتيبة في بيت
عبد بني الحسحاس - ، لكن لا بد أن يكون
التخييل (حسنا) ، أما ما (يبدو انتفاؤه حتى
عند الوهم بأدنى التفات كما في إخافة
الطفل ، فليس التخيل فيه على تقدير وجوده
فيه حسنا ، فلا يقبل لعدم حسنه) (٩١) .

وبناء على قولهم هذا ينبغي أن نستحسن
المبالغة في قول الأخيطل :

يا باسطا كفه نحوي بطيبي

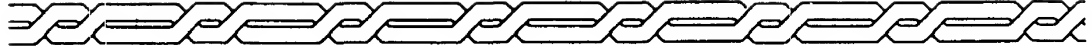
كفأك أطيّب في كفي من الطيب

فإن هذا مما يقع في وهم المحب وتخيله ، بل
ربما كان أقرب إلى الحقيقة منه إلى التخيل .

وكذلك قول المتنبي في (كافور
الأخشيدي) :

(٩١) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة . على أن كلمة ابن
يعقوب (كما يذاق من المثال) من أجمل وأرق ما يكون ، فهذه
المعاني إنما تذوق ذوقا ، والذوق هو الذي يفصل هنا بين ما يمكن
أن يعد في التخيل ، وما لا يمكن عدّه منه .

(٨٩) سناكب الخيل : حوافرها . العثير - بكسر العين - الغبار ، أو
غبار الحرب . ومن لطائفهم : العثير لا تفتح فيه العين (وهذه
تورية) . العنق : السير السريع .
(٩٠) شروح التلخيص ج ٤ . ص ٣٦٣ .



وتثقل عليه الهموم أنه لم يعد يذكر النهار ، ولا يعرف شيئا عنه .

الثالث : ماخرج مخرج الهزل والتضحك ، وقد مثل له علماء البلاغة بقول أبي الشكر محمود ابن سليمان ، المعروف بابن المحتسب :

أمرٌ بالكرم خلف حائطه
تأخذني نشوة من الطرب
أسكر بالأمس إن عزم
سأعلى الشرب غدا، إن أدام العجب

وشاهدهم في البيت الثاني ، إذ السكر بالأمس للغم على الشرب في الغد مستحيل لما فيه من تقدم المعلول على علته ، ولكن لما أتى بهذا المعنى على سبيل الهزل قبل منه .

ومن ذلك قول أبي نواس يصف قدر الرقاشي البخيل :

يغص بحيزوم الجراة صدرها
وينضج ما فيها بعود خلال
وتغلي بذكر النار من دون حرها
وتنزلها عفوا بغير جمال (٩٢)

ومنه قول إبراهيم النظام شيخ الجاحظ :
توهمه طرفي فآلم طرفه
فصار مكان الوهم من خده أثر (٩٣)
ومرّ بفكري خاطرا فجرحت
ولم أر خلقا قط يجرحه الفكر

في كل أرض وطئتها أمم
تُرعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه
وكان يُرى بظفره القلم
فإن كره المتنبي لكافور بعد أن أخفق في مسعاه
عنده خيل له بشاعة أظافر كافر قبل أن يملك على مصر :

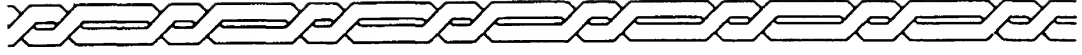
ومن هذا القبيل قول ابن نباتة السعدي :
تعشقت فيه كل شيء يحبه
من الوجد حتى صرت أعشق صدّه
عجبت له يخفي سراه ووجهه
به تشرق الدنيا وبالشمس بعده
وقد أكثر الشعراء القول في معنى البيت الأول حتى كأنه أصبح عندهم حقيقة من الحقائق .

وقريب من هذا قول الشاعر :
حبيبٌ ملكت الصبر عند فراقه
على أنني علقتُه وألقتُه
محا حسن صبري شخصه من تفكري
فلو أنني قابلتُه ما عرفته
وقول العباس بن الأحنف :

أيها النائمون حولي أعي
خوني على الليل حسبة واثجارا
حدّثوني عن النهار حديثا
أو صنفوه فقد نسيّت النهارا
فقد يخيل للمهموم الذي يطول عليه الليل ،

(٩٣) الأثر - بفتح الهمزة - سكون التاء - أثر الجرح يبقى بعد البرء، أو مخفف إثر .

(٩٢) حيزوم الجراة : صدرها . الخلال : نبت رقيق ضعيف . الجعال - بكسر الجيم - : ما تمس به القدر لإنزالها اتقاء حرها .



ولبعد الشعراء غرائب في هذا المعنى الذي
تظن أن النظام أول من اخترعه ، ومما يظهر فيه
التضاحك واضحاً قول الشاعر في الهجاء بكبر
الأنف .

لك أنفُ يا ابن حرب
أنفُت منه الأنوف
أنت في القدس تصلي
وهو في البيت يطوف
ولا أدري إذا كان (ابن حرب) هذا هو (أحمد
ابن حرب المهلب) أم غيره ؛

أما خبر هذا فقد كان من المنعمين على الشاعر
الحمدوني ، وكان لهذا مدائح كثيرة في ابن
حرب ، ولكن حدث أن وهب الرجل للشاعر
طيلساناً أخضر لم يعجبه .

قال أبو العباس المبرد : فأنشدنا - يريد
الحمدوني - فيه عشر مقطوعات ، فاستحلينا مذهب
فيها ، فجعلها فوق الخمسين ، فطارت كل
مطار ، وسارت كل مسار .

وقد شهر هذا الطيلسان عند الأدباء
(بطيلسان ابن حرب) .

ومما قاله الحمدوني في هجاء الطيلسان :

يا بن حرب كسوتني طيلسانا
ملّ من صحبة الزمان وصداً
طال تردّده إلى الرّفو حتى
لو بعثناه وحده لتهدّى

وقوله :

قل لابن حرب طيلسا
نك قوم نوح منه أحدث
أفني القرون ولم يزل
عمن مضى من قبل يورث

وقوله :

وهبت لنا ابن حرب طيلسانا
يزيد المرء ذا الصنعة اتّضاعا
أجيل الطرف في طرفه طولا
وعرضا ما أرى إلا رقاعا
فلست أشك أن قد كان قدّما
لنوح في سفينته شرعاً
وقد ذكر الحصري في (زهر الآداب) بعضاً من
مقطوعات الحمدوني ، وكذلك ذكر قطعاً من هجاء
هذا الشاعر لشاة سعيد بن أحمد التي وهبها
للحمدوني .

وكل هذه المقطوعات مما أريد به الهزل
والتضاحك فالمبالغات فيها سائغة مقبولة .

وقد ذكرت بذكر طيلسان ابن حرب (لحاف
شاعر) عصرنا (٩٥) ، سُرق منه فرثاه بقصيدة
جميلة ألّم فيها ببعض المعاني التي جاءت في
مقطوعات الحمدوني . منها قوله :

هل من بنى الأهرام حا
ك خيوطه من نسج خلد
أو أنه مع (تو) عند
خ كان موضوعاً بلحد

مستعملة في مكان (معاصر) ، وهي نسبة إلى العصر ، ولعلها
أحق بالاستعمال من معاصر .

(٩٤) زهر الآداب ج ١ ص ٥٠٠ تحقيق علي الجاوي .
(٩٥) عصري على وزن شرقي كلمة رأيتها في بعض المؤلفات القديمة



أو حنطته يدُ الزما
ن فلم يُصبه أيُّ قدَّ
تبكيك مرَّتبتني التي
أورثتها عن ألف جدَّ
أهدى به نوحُ إلي
ومستحقني الإرث بعدي
من كل بالغ رشده
إن كان ذا علم وزهد
هذا . وقد عُرف جماعة من الشعراء بحب
المبالغة ، والإكثار منها ، والإسراف أحيانا ،
وسوء الأدب .

منهم المتنبي الذي يقول فيه ابن رشيق بعد أن
يستقل مبالغات أبي تمام بجانب ما كان منها في
عصره ؛ (فإن صرت إلى أبي الطيب صرت إلى
أكثر الناس غلوا وأبعدهم فيه همة حتى لو قدر ما
أخلى منه بيتا واحدا) (٩٦) .

ومنهم (ابن النبية) المصري ، وقد أساء
الأدب في كثير من مبالغاته ، وخرج أحيانا عما
يكون للمسلم من دين وخلق .

ومن ذلك قوله يمدح الخليفة الناصر لدين الله :
بغداد مكنتنا ، وأحمد أحمدُ
حُجُّوا إلى تلك المناسك واسجدوا
يا مذنبين ضعوا بها أوزاركم
وتطهروا بنرابها وتهجدوا
فهل هناك سوء أدب ، ورقة دين أقبح من
هذا ؟ .

بلى . عند الشاعر محمد بن هانيء
الأندلسي ، وهو من شعراء المبالغة
المشهورين وهو شاعر المعز لدين الله
الفاطمي .

ومن هؤلاء أبونواس ، وخلقه ودينه معروفان .
على أن المبالغة قد تكون شؤما على صاحبها ؛
فقد روي أن الشاعر الصوفي عمر بن الفارض
قال - وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى على عادة
الشعراء الصوفيين - :

وبما شئت في هواك اختبرني
فاختياري ما كان فيه رضاكا

فأصيب بحصر البول ، ولم ينفع معه علاج ،
فصار يأتي صبيان المكاتب ، ويقول : ادعوا
لعمكم الكذاب .

ولا نختم هذا البحث حتى نتروح بهذه الكلمة
الصادقة التي أوردتها بهاء الدين بن السبكي في
كتابه (عروس الأفراح) قال : (وسمعت بعض
أهل العلم يقول : إنما لم يوجد لكثير من شعراء
المسلمين كثير من الشعر يمدحون به رسول الله ﷺ
لأن الشعر إنما يحسن بالمبالغة ، وهي متعذرة في
حقه - ﷺ - لأن المادحين ، وإن بذلوا جهدهم لا
يصلون إلى قطرة من بحر عليه أفضل الصلاة
والسلام) (٩٧) .

د . علي محمد حسن
[العماري]